

السلام في الإسلام

المفاهيم النظرية والتطبيقات الاجتماعية

د/ خالد بن محمد الشنير(*)

• مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على من بعثه الله أمانا وسلاما للعالمين، وبعد.

يكاد الحديث عن مفرد السلام ومعناه في الأزمنة المعاصرة أن يكون أحد أكثر المفردات شهرة وتناولا على المستوى السياسي والديني، نظرا لما تُمثله هذه المفردة من معانٍ متعددة تتعلق بحياة كثير من الناس على اختلاف أديانهم وثقافتهم.

ولما كان السلام في الإسلام أمرًا جاء الترغيب فيه والحث عليه، ولما كان هذا اللفظ مما يلبسه الغموض -أحيانا- عند بعض الناس؛ كان من المهم أن تكون هناك دراسة تتناوله بالتحليل والدراسة.

لقد أصبحنا في حاجة أن نُوصل الإسلام إلى إمم كثيرة ممن لم تعرفه جيدا، إنها أُمم لُبَس عليها ولم تفهم دقة مفاهيم الإسلام، لذا نجد انتشار عدد من المفاهيم السلبية حول الإسلام، بل واقترن هذا المفهوم كثيرا بأعمال العنف والقتل، وأصبح ذلك جزءا من ثقافات عدد من الأمم زورا وكذبا.

لقد كان للدراسات الإستشراقية دورها السلبي في منهجية دراسة

(*) الأستاذ المساعد في قسم الثقافة الإسلامية، كلية التربية - جامعة الملك سعود بالرياض.

الإسلام، إذ الدارس لنصوصه ومبادئه - كما سيتضح في هذا البحث- سيتجلى له أمور أكثر وضوحا في نقاء هذا الدين وسماحته، وتميزه عن سائر الأديان بنواحٍ تشريعية تتعلق بحماية غير المسلمين، قد تم وضعها كقوانين لا مفر منها. لكن كثيرا من الدراسات أهملت هذه النواحي وصارت تُنقَب في نصوص الإسلام وتاريخه لأهداف يُراد الوصول لها مُسبقا، بغض النظر عن مدى دقة النتائج وعلميتها.

أهمية البحث أسباب اختياره:

١- توضيح المفهوم الشامل "للسلام" في الإسلام، وأنه يحتوى على عدة مظاهر.

٢- تصحيح الصورة السلبية حول الإسلام، من خلال عرض الجوانب المنسية من تشريعاته في مسألة السلام.

٣- دراسة موضوع السلام دراسة علمية بعيدة عن المناهج المتوترة، وبعيدا عن المناهج المميعة لتشريعات الإسلام وتعاليمه المحكمة.

٤- الاندماج الحضاري بين المسلمين وغيرهم ثقافيا وسياسيا واقتصاديا يوجب علينا إقامة دراسات جادة حول المفاهيم العالمية السائدة، وبيان موقف الإسلام منها.

خطة البحث:

المقدمة، وتحوي على: أهمية البحث وأسباب اختيار، وأيضا: خطة البحث.

المبحث الأول: دعوات السلام ومفاهيمها من خلال نصوص الوحي:

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: أوامر السلام في نصوص الوحي الإسلامي.

المطلب الثاني: المنهج التطبيقي لمفهوم السلام.

المبحث الثاني: التسامح والإحسان مع المخالفين:

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: التسامح والإحسان؛ شهادات منصفة.

المطلب الثاني: دعوات الإحسان والتسامح في نصوص الوحي.

المطلب الثالث: التسامح الإسلامي؛ مبادئ واحترازات.

المبحث الثالث: حرمة الدماء والأموال:

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: حرمة الدماء والاعتداء.

المطلب الثاني: احترام أموال وحقوق غير المسلمين.

المبحث الرابع: الدعوة للعدل مع المخالفين:

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الدعوة للعدل من خلال نصوص الوحي.

المطلب الثاني: العدل كمنهج للدولة الإسلامية.

المبحث الخامس: محبة الأعداء والولاء للجماعة:

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: النظرة الواقعية في مفهوم المحبة.

المطلب الثاني: الدعوة للمحبة ومفهومها في الإسلام.

وختاماً: فإني أحمد الله على تيسير هذا البحث، وأخص بالشكر عمادة البحث العلمي في جامعة الملك سعود دعمها هذا البحث، المعنون بـ (السلام في الإسلام: المفاهيم النظرية والتطبيقات الاجتماعية)، وغيره من المشاريع البحثية.

• المبحث الأول: دعوات السلام ومفاهيمها من خلال نصوص الوحي:

تظهر أهمية النظر والبحث نظراً لكون الحديث عن هذا الموضوع أصبح في كثير من الأحيان يميل إلى مثالية كبيرة من أتباع هذه الأديان. هذه المثالية معارضة بنصوص أخرى صريحة تخالفها، وهي في نفس الوقت تُفسّر بتفسيرات مختلفة تميل إلى التواءم والتوجهات المعاصرة للأحداث العالمية. بمعنى آخر: أن هناك ضغوطاً دولية لإقرار مفاهيم السلام والتسامح، الأمر الذي أدى أحياناً إلى اتخاذ منهج مثالي جداً، بل وموغل في المثالية في تناول نصوص السلام وتحميلها فوق ما تحتمله من مفاهيم.

وأنا أظن أن المثالية العالية - والتي قد لا نجد لها تطبيقاً واقعياً - أصبحت سبباً للتسارع في إثبات أسبقية الدين - أي دين - لمثل هذه الدعوات، ونظراً لكونها موهلة في المثالية؛ لم يجد البعض بداً من التكلفة الشديدة في البحث عما يوازئها داخل النصوص الدينية.

إن الملاحظ على عدد من الدراسات أنها تقف عند رسم اللفظ والذي يحتمل الكثير من المعاني، لنحمله على معنى مقرر سلفاً، وليس هو مراد من خلال السياق والمضمون. فالجنة دار السلام عند المسلمين، ولكن كلمة السلام أو أحد مشتقاتها والتي بلغت في القرآن الكريم مائة وثمانين وثلاثين آية في غالب أحوالها ليست هي المرادة في القوانين الدولية حتى نتكلف استدعاءها،

وإن كانت تلك المعاني نبيلة في ذاتها. والمسلم يقول السلام عليكم، ولفظ "شلوم" العبري في العهد القديم اليهودي لا يدل على نظرية السلام الدولية المعاصرة. لكن لما كان هناك مباحكة في البحث عن مفاهيم التعايش؛ أصبحنا نورد ما ليس له علاقة بمشكلة البحث لأجل تقنين المبادئ السلمية، وهذا يخالف الحقائق البحثية بلا شك^(١).

النقد الموجة للتوجهات الموغلة في المثالية لا يعني - بحال من الأحوال - أننا لا نجد أرضية للسلام في الإسلام، ولكني أردت في الحقيقة أن أعالج قضية مهمة بالنسبة لي؛ وهي أثر التوجهات الدولية في التعسف في الاستدلال بعدد من النصوص الدينية، لا لكونها متوافقة في الأصل، فهذا ليس محل النقاش، وإنما إيرادها في غير سياقها، بحيث يُلتقط من النصوص ما يتناسب مع تلك التوجهات، ويترك ما دونها، الأمر الذي حذر منه القرآن: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥].

المطلب الأول: أوامر السلام في نصوص الوحي الإسلامي:

السلام في الإسلام ليس مسألة جديدة وليدة في العصور المتأخرة، بل هي مسألة قديمة بقدم الإسلام نفسه. ولا يعني ما سبق من ملاحظات أن نشك في تفضيل الإسلام للسلام، وأنه أولى الخيارات التي يقدمها، بل إن هذه الحقائق لا تحتاج إلا إلى مزيد إدراك في كيفية اكتشافها، وذلك نظرا لاعتقاد البعض من أن مفهوم "السلام" لا بد فيه من استبعاد أي عملية قوة، بحيث أصبحت هذه المصطلحات (تخلق الوهم بوجود شيء أخلاقي مطلق اسمه

"السلام" مقابل شيء آخر لا أخلاقي مطلق يُسمَّى "الحرب"، ولا يوجد أي منهما داخل أي سياق إنساني وتاريخي أو اجتماعي^(٢).

والحديث عن مفهوم السلام في الإسلام هو أعمق من أن نهتم بلفظ السلام الوارد في الكتاب والسنة، وأوسع من أن يحيط به لفظ. فهو مأخوذ من نصوص الإسلام، ومن تصرفات وحال المسلمين في موقفهم من غير المسلمين، خاصة زمن النبوة والخلفاء الراشدين.

إذا، السلام الحقيقي لا يعني ترك الحرب مطلقاً، إذ أن هذا يصطدم مع حقائق وصريح القرآن الكريم والسنة النبوية، بل هو مجموعة من النصوص التي تحدد بحث الإسلام عن أسهل الطرق وأيسرها والتقليل قدر المستطاع من إراقة الدماء، لكن - أحياناً - لا بد من إراقة الدماء في سبيل نشر السلام، فهناك من لا يقبل أبداً إلا بالحرب.

هذا المفهوم الشامل لمبدأ السلام هو ما سيتناوله معظم مباحث هذا البحث.

إن مفهوم السلام في الإسلام لا يمكن اختزاله في مفرد "سلم" أو أحد مشتقاته، بل هو مفهوم أعم من ذلك بكثير. وهنا نجد أن من المهم تناول هذا المفرد نظراً لكون كثير من الكتب التي تتكلم عن السلام تورد الكثير من النصوص الإسلامية حوله.

من أبرز النصوص الدالة على تقديم الإسلام للسلام، قول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنفال: ٦١].

قال الطبري: (وإن مالوا إلى مسالمتك ومطاركتك الحرب، إما بالدخول

في الإسلام، وإما بإعطاء الجزية، وإما بموادعة، ونحو ذلك من أسباب السلم والصلح (فاجنح لها)، يقول: فمل إليها، وابذل لهم ما مالوا إليه من ذلك وسألوكم^(٣).

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: ﴿وَأِنْ جَنَحُوا﴾ أي: مالوا ﴿لِلسَّلَامِ﴾ أي: المسالمة والمصالحة والمهادنة، ﴿فَأَجْنَحْ لَهَا﴾ أي: فمل إليها، واقبل منهم ذلك؛ ولهذا لما طلب المشركون عام الحديبية الصلح ووضع الحرب بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم تسع سنين؛ أجابهم إلى ذلك مع ما اشترطوا من الشروط الآخر... وقول... إن هذه الآية منسوخة بآية السيف في "براءة": ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ الآية، التوبة: ٢٩، فيه نظر أيضاً؛ لأن آية براءة فيها الأمر بقتالهم إذا أمكن ذلك، فأما إذا كان العدو كثيفاً، فإنه تجوز مهادنتهم، كما دلت عليه هذه الآية الكريمة، وكما فعل النبي صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية، فلا منافاة ولا نسخ ولا تخصيص^(٤).

وقال الله تعالى في آية أخرى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْخُلُوا فِي السِّلَافِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

والمقصود بالسلم هنا مشكل. صحيح أن هذه الآية لا يكاد أن تورد في الأزمنة المتأخرة إلى من خلال الدعوة للسلام في غالب الكتب، إلا أن هناك خلافاً في المراد بمعناها، ويلخص هذا الخلاف الإمام الطبري بقوله: (قد اختلف القراءة في قراءة ذلك، فقرأته عامة قراء أهل الحجاز: "ادخلوا في السلم" بفتح السين، وقرأته عامة قراءة الكوفيين بكسر السين.

فأما الذين فتحوا "السين" من "السلم"، فإنهم وجهوا تأويلها إلى المسالمة، بمعنى: ادخلوا في الصلح والمساومة وترك الحرب وإعطاء الجزية.

وأما الذين قرأوا ذلك بالكسر من "السين" فإنهم مختلفون في تأويله؛ فمنهم من يوجهه إلى الإسلام، بمعنى ادخلوا في الإسلام كافة، ومنهم من يوجهه إلى الصلح، بمعنى: ادخلوا في الصلح^(٥).

ومما يؤكد منهج السلام في الإسلام قول النبي صلى الله عليه وسلم لعلي رضي الله عنه: (إنه سيكون بعدي اختلاف أو أمر، فإن استطعت أن تكون السلم فافعل)^(٦).

المطلب الثاني: المنهج التطبيقي لمفهوم السلام:

النصوص الإسلامية واضحة في حديثها عن مفهوم السلام الواسع، ويؤكد هذا المنهج عدة مبادئ تطبيقية كان يمارسها النبي ﷺ في حياته كثيرا. ففي فتح مكة (أعظم مدن الإسلام) اتخذ نبي الإسلام ﷺ أعمالا تنبئ أنه لا يريد استباحة الدماء، حتى أن الأنصار من أصحابه المجاهدين معه والمناصرين له شكوا في توجهاته مع قومه، نظرا لما بدر منه من الرحمة بهم، إذ لم يكن همه قتل الناس، بل أراد أن ترضخ له مكة. وقال للناس: (من دخل دار أبي سفيان [أعظم زعماء مكة] فهو آمن، ومن ألقى السلاح فهو آمن ومن، أغلق بابا فهو آمن)^(٧).

هذه المبادرة السلمية التي فعلها النبي ﷺ جعلت جزءا من جيشه يتحدث حولها ويقولون: أما الرجل [أي النبي ﷺ] فقد أخذته رافة بعشيرته ورغبة في قرينته!!

لكن هنا لا بد من التنبيه؛ أن هذه القصة دائما ما تُورد على كون النبي ﷺ لا يريد الحرب، وأنه لا يريد إلا السلام، وهذا وإن كان له جانب من كبير من الصواب؛ إلا أن الكثير عندما يروي هذه الرواية يستبعد منها

بقية أجزائها، فقد قال أيضا - كما في نفس الرواية - موصيا جيشه: (يا معشر الأنصار: هل ترون أوباش قريش؟) قالوا: نعم، قال: (انظروا إذا لقيتموهم غدا أن تحصدوهم حصدا).

إذا، فالقتال ليس مقدما وليس مرادا لذاته، بل السلام هو المقدم، لكن ما دام أن هناك من يريد القتال، فليس من العقل والواقع أن نطالبه بالسلام، أو أن يقدم له السلام، بل القرآن نص على منع ذلك بقوله: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَهِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكَكُمْ أَعْمَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٥].

ومما يؤيد الرحمة في الدعوة للسلام ما جاء في بعض الروايات^(٨) لفتح مكة - عندما ظن بعض أصحاب النبي ﷺ أن فتح مكة يوم تصفية حسابات مع أشد أعداء الإسلام نكاية - حيث مرت كتيبة الأنصار فيها سعد بن عباد، فنادى سعد أبا سفيان: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة، فلما مر رسول الله ﷺ بأبي سفيان في المهاجرين قال: يا رسول الله! أمرت بقومك أن يقتلوا؟ فان سعد بن عباد ومن معه حين مروا بي ناداني سعد فقال: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة، وإني أناشدك الله في قومك. فأرسل رسول الله ﷺ إلى سعد بن عباد فعزله، وجعل الزبير بن العوام مكانه على الأنصار مع المهاجرين.

إن رجل السلام الحقيقي هو الذي تتبع الرحمة من جوفه لأجل الآخرين، فمن الصعوبة أن تجد رجلا يقاتل وهو يتمنى كل الخير لأعدائه. هذا الخير هو المربوط بهداية الناس، وليس بإرادة قتلهم.

بقي هنا أن أشير إلى الرحمة السلمية عندما يتمكن الطريد من بلده والمضطهد في حياته، من رقاب أعدائه. من المهم بعد أن عرفنا صنيع محمد

ﷺ مع أهل مكة، وهم أشد أعدائه، لا بد أن نعلم أيضا ما صنع أهل مكة له في بداية ظهور الإسلام، من شدة صنوف التنكيل والتعذيب والإهانة، حتى يتبين لنا كيف كان يبحث عن سلام حقيقي يعيش الناس في ظل الإسلام إخوة متحابين.

يتحدث الصحابي عبد الله بن مسعود عن حجم المعاناة التي واجهت النبي ﷺ في مكة مع مشركي قريش، فيقول: بينما كان النبي ﷺ يصلي عند البيت، وأبو جهل وأصحاب له جلوس، إذ قال بعضهم لبعض أيكم يجيء بسلي جزور^(٩) فيضعه على ظهر محمد إذا سجد، فانبعث أشقى القوم فجاء به، فنظر حتى إذا سجد النبي ﷺ وضعه على ظهره بين كتفيه وأنا أنظر، لا أغير شيئا، لو كان لي منعة. فجعلوا يضحكون ويحيل بعضهم على بعض، ورسول الله ﷺ ساجد لا يرفع رأسه، حتى جاءت فاطمة، فطرحته عن ظهره^(١٠).

ومن غرائب الأحداث التي تبين حرصه على تقديم العفو والصفح على القتل، ما روته زوجته عائشة عندما قالت: يا رسول الله: هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ قال: (لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلمتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال، فسلم علي ثم قال: يا محمد، فقال ذلك فيما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين [وهما من جبال مكة حول الكعبة]، فقال النبي ﷺ بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا^(١١).

و عن عروة بن الزبير قال : عبد الله بن عمرو عن أشد ما صنع المشركون برسول الله ﷺ قال: رأيت عقبة بن أبي معيط جاء إلى النبي ﷺ وهو يصلي، فوضع رداءه في عنقه فخنقه به خنقا شديدا، فجاء أبو بكر حتى دفعه عنه فقال: أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله . وقد جاءكم بالبينات من ربكم (١٢).

بل إن أصحابه الأوائل في الإسلام لم يسلموا من شدة التنكيل والاضطهاد الوحشي الذي مارسه قريش عليه وعلى أصحابه، والمجال هنا لا يتسع لذكر الكثير من الأمثلة (١٣)، إلا أن المراد هنا ذكر كيف تعامل المشركون وقت قوتهم وتمكنهم مع النبي ﷺ، ثم كيف دارت الأيام ورأينا كيف تعامل معهم نبي الإسلام ﷺ من تقديم السلم والعفو والرحمة، في وقت كانت ثقافة العلاقات بين الشعوب تقوم على الحرب الضروس.

• المبحث الثاني: التسامح والإحسان مع المخالفين:

المطلب الأول: التسامح والإحسان: شهادات منصفة:

كثيرا ما تحدث أعداء الإسلام عن موقف الإسلام من البشر المخالفين في الاعتقاد، وصوروا أن الإسلام لا ينظر لهؤلاء إلا نظرة الازدراء والقتل وسفك الدماء، لكن الواقع الحقيقي أن هذه النظرة لا تخلو من تشويه متعمد للحقائق الثابتة في نصوصه المقدسة أو الواقع العملي لها. وغفل أو تغافل هؤلاء عن كم هائل من السماحة في علاقات المسلمين السلمية مع الشعوب الأخرى لم يعرف التاريخ "تقييدا وتقنيناً" لها كما هو في الإسلام، الأمر الذي جعل المستشرق اليهودي "جولد تسيهر" -المعروف بطعنه في عدد من الشرائع الإسلامية- لا يستطيع إخفاء إعجابه بمنج الإسلام، حيث يقول:

(وروح التسامح في الإسلام قديما، تلك الروح التي اعترف بها النصارى المعاصرون أيضا، كان لها أصلها في القرآن: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ البقرة: ٢٥٦، وقد جاءت الأخبار عن السنين العشر الأولى للإسلام بمثلٍ للتسامح الديني للخلفاء إزاء أهل الأديان القديمة، وكثيرا ما كانوا يوصون في وصاياهم للفاثحين بالتعاليم الحكيمة...) (١٤).

نعم نجد بعض النصوص المقدسة في عدد من الأديان تدعو إلى أنواع من السماحة، لكن في الحقيقة أننا ومع وجود هذه النصوص لم نجد نظاما قانونيا يضع هذه النصوص في قوالبها العملية، إذ لا تعدو أن تكون شذرات وأقوالا فردية لم يُسمح لها بالتطبيق العملي عندما جاء وقتها، بينما في الإسلام نراها واقعا مطبقا، الأمر الذي دفع عددا من المفكرين إلى الاعتراف بذلك، وكما قال "غوستاف لوبون" : (فالحق أن الأمم لم تعرف فاتحين راحمين متسامحين مثل العرب ولا ديناً سمحا مثل دينهم) (١٥).

وإن كان هناك ثمة اختراقات لهذا النظام الإسلامي المتسامح؛ فإن هذا الاختراق لم يكن يمثل الإسلام بقدر ما كان يمثل فعل أصحابه. وأما صميم التعاليم الإسلامية المتسامحة فلا يستطيع أحد أن يخفيها، إذ هي تعاليم وردت من منبع السماحة: نبي الإسلام ﷺ، إذ تجده -مثلا- يتكلم مع أصحابه بما لم يخطر لهم على بال، ويقول مذكرا إلى الأخذ باللين والرفق: (ستفتحون مصر ... فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها فإن لهم ذمة ورحما، أو قال: ذمة وصهرا) (١٦).

إن المشكلة الكبرى في سياق تاريخ الفتوحات الإسلامية تكمن في طريقة عرضها للجماهير، وبمعنى آخر: عندما يركز كاتبٌ ما على مسألة أن

المسلمين سيطروا على البلدان المجاورة ونشروا الإسلام؛ فهذا بحد ذاته عند بعض الناس يُسمى اعتداءً. لكن عند النظر لجميع الجوانب الحربية التي كان يصنعها المسلمون في فتوحاتهم يجد جانباً مشرقاً، ولينا ولطفاً وتسامحاً.

لا شك أن المسلمين عندما كانوا يفتحون بلداً لم يكونوا يساوون "تماماً" من كل الوجوه بين المسلمين وغيرهم، لكنهم في نفس الوقت لم يكونوا يبتزون من إنسانية الشعوب الأخرى (كما كانت الحياة الحربية قديماً)، الأمر الذي دفع المستشرقة الألمانية "زيغريد هونكه" إلى القول: (ولعل من أهم عوامل انتصارات العرب هو ما فوجئت به الشعوب من سماحتهم، حتى إن الملك الفارسي كيروس نفسه قال: "إن هؤلاء المنتصرين لا يأتون كمخربين")^(١٧).

والقارئ لكتاب "قصة الحضارة" للمؤرخ العالمي -ذو التوجه العلماني- "ول ديورانت" يجد عدداً من هذه الشهادات، وهو الذي درس تاريخ العالم، وقدمه في ٤٧ مجلداً.

لقد احتل كلامه عن تاريخ المسلمين أجزاءً من كتابه، سجل فيها إعجابه الشديد، مع تحفظ له على شدة تمسك المسلمين على حرفية النصوص عندهم، فيقول: (ولا يسعنا إلا أن نسلّم -مع هذه التحفظات- بأن للخلفاء الأولين من أبي بكر إلى المأمون قد وضعوا النظم الصالحة الموفقة للحياة الإنسانية في رقعة واسعة من العالم، وأنهم كانوا من أقدر الحكام في التاريخ كله.

ولقد كان في مقدورهم أن يصادروا كل شيء، أو أن يخربوا كل شيء، كما فعل المغول^(١٨) أو المجر أو أهل الشمال من الأوروبيين، لكنهم لم يفعلوا هذا بل اكتفوا بفرض الضرائب...)^(١٩).

هنا لا بد أن نعلم أن الإسلام يولي عناية فائقة بالأخوة الإسلامية، ويجعل الحب في الله والبغض فيه هي أوثق عرى الإيمان^(٢٠)، حتى عُرف المسلمون بهذه الرابطة بينهم، لكن هذه الأخوة لم تكن لتمنع المسلمين في بذل المعروف لغيرهم ممن يشاركونهم في الإنسانية^(٢١).

إن السماحة الإسلامية لم تكن وليدة ضغوط دولية تُمليها ظروف سياسية معينة، ولم تكن فقط أثناء ضعف المسلمين وقلة يدهم أثناء الفترة المكية، بل إن هذا السماحة امتدت منذ أن ظهر الإسلام حتى انتشر في مجتمعات كثيرة كانت تبارزه العداء، ويوم أن مكن الله لهم لم يقوموا بضد ما كانوا يتعلموه أيام ضعفهم، بل استمرت عدالتهم وسماحتهم في فترة قوتهم وصلابتهم وإعلان دولتهم الكبرى.

المطلب الثاني: دعوات الإحسان والتسامح في نصوص الوحي:

إن مبادئ الإحسان والتسامح واللين هي مبادئ أصلية في القرآن الكريم، وعندما نقرأ في النصوص القرآنية أو الأحاديث النبوية نجد العشرات - إن لم يكن المئات - من النصوص الآمرة بالإحسان وعدم الاعتداء والقسوة والعنف.

يقول القرآن: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ [النساء ١٤٨].

ويقول أيضا: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (١٠) وَلَمَنِ اتَّصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ (١١) إِنَّا السَّيْلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَعُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٢) وَلَمَنْ صَبَرَ وَعَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٣) الشورى ١٤٠-١٤٣.

فالأيات القرآنية وإن أعطت المظلوم حق القصاص، فهي في نفس الوقت تحض على العفو والصفح والتسامح، ولهذا جاء التأكيد في الآية السابقة: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾، وأيضا: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ .

كما جاء في القرآن أيضا: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٦]، وأيضا: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

ومعلوم من جيلة الإنسان أنه غضوب، ولا بد من توجيه يحكم هذا الغضب، فجعل من الصفات المميزة لمن يدخل الجنة أنه ممن يصدق عليه وصف: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

وكان نبي الإسلام ﷺ يحث على العفو والتسامح. ولما كان مفهوم العفو عند بعض الناس علامة على ذل وضعف العافي؛ جاء نبي الإسلام وألغى هذا المفهوم عندما قال: (وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزاء، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله)^(٢٢).

وكان يؤكد على مبدأ الرحمة، فيقول: (الراحمون يرحمهم الرحمن. ارحموا أهل الأرض يرحمكم أهل السماء)^(٢٣). ويقول أيضا: (لا يرحم الله من لا يرحم الناس)^(٢٤).

التسامح والإحسان مع غير المسلمين:

إن مما تميز به المنهج الإسلام تطبيقه لنظريات التسامح والإحسان مع

بني البشر من غير المسلمين، وجعل في ذلك قوانين يُعمل بها، وشهد بها التاريخ أيضاً.

ولما كان ليس جميع الكفار يُعد من الأعداء المحاربين، بل منهم المواطنون وأصحاب العهد والذمة؛ كان هذا مما يفسر وجود آيات القرآن: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝﴾ (٨) إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾ [الممتحنة: ٨ - ٩]

يقول إمام المفسرين "الطبري": (عني بذلك: "لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين"، من جميع أصناف الملل والأديان "أن تبرؤهم" وتصلوهم، وتقسطوا إليهم،.. وقوله: "إن الله يحب المقسطين" يقول: الله يحب المنصفين الذين ينصفون الناس، ويعطونهم الحق والعدل من أنفسهم، فيبرّون من برّهم، ويحسنون إلى من أحسن إليهم) (٢٥).

لقد كانت هذه التعليمات حاضرة في حياة المسلمين (٢٦)، فقد كان نبي الإسلام يزور اليهود، بل إن أنس بن مالك يروي لنا أنه كان غلام يهودي يخدم النبي ﷺ فمرض هذا الغلام، فأناه النبي ﷺ يعودُه فقعد عند رأسه فقال له: (أسلم). فنظر إلى أبيه وهو عنده فقال له: أطع أبا القاسم صلى الله عليه و سلم، فأسلم، فخرج النبي صلى الله عليه و سلم وهو يقول: (الحمد لله الذي أنقذه من النار) (٢٧).

وتحكي لنا كتب السنة أن لبيد بن الأعصم اليهودي سحر النبي ﷺ، ولما شفاه الله بعد ذلك، وأصبح يحكي لزوجته عائشة صفة تلك البئر الذي وضع السحر فيها، فقالت: يا رسول الله أفلا استخرجته؟ قال: (قد عافاني الله، فكرهت أن أثور على الناس فيه شراً). فأمر بها فدفنت (٢٨).

لقد كان نبي الإسلام ﷺ يتعامل مع يهود المدينة بأدب ولطف، لم يكن يُقابل به أحياناً، ففي مرة دعا يهودي النبي ﷺ إلى خبز شعير وإهالة سنخة، فأجابه ﷺ (٢٩).

وقيل ﷺ في خيبر هدية زينب بنت الحارث اليهودية، لكنها هدية غدر لا مودة، فقد أهدت له شاة مشوية دسّت له فيها السم، وأرادت بذلك قتله، فقيل: ألا نقتلها؟ قال: (لا). ويقول راوي الحديث: فما زلت أعرفها في لهواته ﷺ. يقصد أثر السم في فم النبي ﷺ (٣٠).

لقد أضحت هذه التوجيهات الإسلامية في القرآن الكريم والسنة النبوية موجهاً بارزاً في تصرفات المسلمين المتمسكين بدينهم، ووجدت لها مكاناً في مصنفات الفقهاء. فحين تحدث الفقهاء - مثلاً - عن حقوق الضيف رأوا وجوبها لكل ضيف. ونتوقف هنا عند هذه المسألة من أقوال بعض فقهاء الإسلام والتي تبين كيف كان المسلمون يحفظون لغير المسلمين حقوقهم.

قال ابن القيم في كتابه "أحكام أهل الذمة": (وتجب الضيافة على المسلم للمسلمين والكفار لعموم الخبر، وقد نص عليه أحمد في رواية حنبل، وقد سأله: إن أضاف الرجل ضيفاً من أهل الكفر؛ يضيفه؟ فقال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ليلة الضيف حق واجب على كل مسلم" (٣١)، فدل على أن المسلم والمشرِك يضافان).

والضيافة معناها معنى صدقة التطوع على المسلم والكافر. وهذا لفظ أحمد، فقد احتج بعموم الخبر، وأنه يعم المسلم والكافر.

وإذا نزل به الضيف ولم يضيفه كان ديناً على المضاف: نص عليه في رواية حنبل.

فقال: إذا نزل القوم فلم يضافوا فإن شاء طلبه وإن شاء ترك، قال له: فكم مقدار ما يقدر له؟ قال: ما يموت في الثلاثة الأيام؛ واليوم والليله حق واجب، قال له: فإن لم يضيفوه ترى له أن يأخذ من أموالهم بمقدار ما يضيفه. قال: لا يأخذ إلا يعلم أهله؛ وله أن يطالبهم بحقه).

أقول: هذا ما يتعلق بواجب المسلمين تجاه الضيوف غير المسلمين أو المسلمين. ثم يسترسل ابن القيم الحديث من الجهة المقابلة، وهو الواجب على أهل الزمة تجاه ضيافة المسلمين، الأمر الذي يظهر منه أن الواجب منهم تجاه المسلمين هو أقل مما يجب على المسلمين تجاههم، فيقول: (فأما قوله [أي الإمام أحمد بن حنبل]: "إن اليوم والليله حق واجب والثلاثة مستحبة"؛ فهذا صحيح في حق المسلمين.

وأما في حق "أهل الزمة" فلا يمكن أن يقال ذلك، فإن الثلاثة إن كانت مشروطة عليهم فهي حق لازم عليهم القيام به للمسلمين وإن لم تكن مشروطة عليهم لم يجز للمسلمين تناول ما زاد على اليوم والليله إلا برضاهم^(٣٢).

لقد شرع الإسلام - بتميز واضح - الإحسان إلى غير المسلم، وأصبح جزءاً من تعاليمه القانونية، يؤكد هذا التساؤل الواضح بين علماء المسلمين: هل يُعطى غير المسلمين من أموال المسلمين، سواء من بيت المال، أو من الصدقات العامة التي يُقدمها أغنياء المسلمين لفقرائهم؟^(٣٣)

قبل الإجابة على هذا التساؤل، يجب أن نعلم هنا أن نتيجة هذا التساؤل ستقودنا بالطبع إلى معرفة كيف أن الإسلام تميّز بوجود تشريعات كهذه، حيث لم ينس غير المسلمين، حتى أولئك الذين لم يعيشوا داخل نفس المجتمع.

وهنا يمكن الإجابة على التساؤل السابق من خلال ما يلي:

أولاً: الزكاة؛ إذ من المعلوم بداهة عند المسلمين أن الزكاة المالية الواجبة في مال المسلم تؤخذ منه وتعطى للمسلم، كما جاء في حديث بعث معاذ إلى اليمن حيث قال له النبي ﷺ: (إنك ستأتي قوماً أهل كتاب... فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم) (٣٤).

قال ابن قدامة: (لا نعلم بين أهل العلم خلافاً في أن زكاة الأموال لا تعطى لكافر) (٣٥).

أقول: باستثناء سهم المؤلفه قلوبه للإسلام، فيعطون منها مع كونهم غير مسلمين.

ثانياً: الصدقات العامة؛ والتي يُخرجها المسلم تطوعاً منه. وهذه المسألة ورد فيها بعض النصوص التي تدل على جواز إعطائها لغير المسلم، ومنها:

أ - نصوص قرآنية؛

- قال الله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨]

والأسير في الأصل يُراد به - غالباً - غير المسلم. يقول إمام المفسرين: الطبري، عن معنى الأسير في الآية: (وهو الحربي من أهل دار الحرب، يُؤخذ قهراً بالغلبة، أو من أهل القبلة، يُؤخذ فيُحبس بحق. فأنتى الله على هؤلاء الأبرار بإطعامهم هؤلاء تَقَرُّباً بذلك إلى الله وطلب رضاه، ورحمة منهم لهم) (٣٦).

قال عزيز بن عمير - وقد كان وثنياً قبل إسلامه - كنت في الأسارى يوم معركة بدر، فقال رسول الله ﷺ: (استوصوا بالأسارى خيراً)، وكنت

في نفر من الأنصار [المسلمين في المدينة المنورة] وكانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم أكلوا التمر، وأطعموني الخبز! بوصية رسول الله ﷺ إياهم^(٣٧).

- وصورة أخرى نقلها ابن عباس، عن النبي ﷺ، أنه كان يأمر بألا يتصدق إلا على أهل الإسلام، حتى نزلت هذه الآية في إعطاء التبرعات لغير المسلمين^(٣٨): ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا تُنْفِسْكُمْ وَمَا تُنْفِقُوا إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُّوفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ ﷻ البقرة: ٢٧٢.

ب - من السنة النبوية:

- تقول أسماء بنت أبي بكر الصديق: قَدِمَت عَلَيَّ أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَاسْتَفْتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قُلْتُ: إِنْ أُمِّي قَدِمَتْ وَهِيَ رَاغِبَةٌ، أَفَأَصِلُ أُمِّي (وفي رواية: أَفَأَعْطِيهَا)؟ قَالَ: (نعم، صلي أُمكِ)^(٣٩).

قال النووي: (وفيه جواز صلة القريب المشرك)^(٤٠).

وذكر البعض أن هذا خاص بغير المسلم إن كان قريباً في النسب، لكن يرفع هذا الظن أن عائشة زوج النبي ﷺ (سألها امرأة يهودية فَأَعْطَتْهَا...) ^(٤١). وهو دليل واضح في المسألة.

- ولما ذبح الصحابي عبد الله بن عمر ذبيحة، قال لغلامه: يا غلام! إذا فرغت فابدأ بجارنا اليهودي. فقال رجل من القوم: لليهودي، أصلحك الله؟! [كأنه قالها مستكراً]، فقال ابن عمر: سمعت النبي ﷺ يوصي بالجار، حتى خشينا أنه سيورثه^(٤٢).

ولا يفوت القول هنا: إن ابن عمر كان من أشبه الصحابة تأسيا بنبي الإسلام ﷺ.

ثالثاً: هل يعطى غير المسلم من بيت مال المسلمين؟

وقد مر معنا قبل قليل الحديث عن إعانة المسلم للمحتاج من غير المسلمين، وأن الإسلام جعل فيه الأجر عند الله. والكلام هنا عن نوع تقدمه الحكومة المسلمة لرعاياها من غير المسلمين، حيث كان المسلمون يسمحون لغيرهم أن يبقوا على دينهم - إذ هم رفضوا الإسلام - على أن يقوموا بدفع جزية للمسلمين نظير حمايتهم.

وقد أبصر خليفة المسلمين الثاني عمر بن الخطاب شيخاً من أهل الذمة - يهودي أو نصراني - يسأل الناس، فقال له: مالك؟ قال: ليس لي مال، وإن الجزية تؤخذ مني، فقال له عمر: ما أنصفناك! أكلنا شيبتك، ثم نأخذ منك الجزية، ثم كتب إلى عماله أن لا يأخذوا الجزية من شيخ كبير. قال: ثم أجرى عليه من بيت المال ما يصلحه^(٤٣).

المطلب الثالث: التسامح الإسلامي؛ مبادئ واحترافات:

إن الظاهرة الإسلامية المتسامحة مرتبطة ارتباطاً طبيعياً بروح الإسلام، ويدل لذلك أمران^(٤٤):

أ- المدى الذي حققه الإسلام في قبوله التعايش مع الثقافات الأخرى بما هو مدى فريد لا يوجد له مماثل في التاريخ الماضي والحاضر.

ب- استمرار هذه الظاهرة على مر العصور وفي مختلف الأقطار التي حكمها الإسلام، بما يعني أنه لم يكن لتغيير الظروف الزمانية والمكانية أثره على هذه الظاهرة.

ويزيد في الدلالة على الارتباط الطبيعي بين الإسلام والتسامح مع الأديان الأخرى وجود عاملين مهمين كان يمكن - بمقتضى طبيعة الأمور - أن يعوقا هذه الظاهرة، ولكن الذي حدث أنه لم يكن لهما أثر عليهما:

العامل الأول: أن المسلم يؤمن بأنبياء إسرائيل وآبائهم ويؤمن بشكل واضح بالسيد المسيح عليهم الصلاة والسلام، وهم في الإسلام من ضمن أركان الإيمان بالأنبياء، إلا أنه مع ذلك؛ فإن المسلم لم يكن لديه لبس في مناقضة الإسلام للمسيحية واليهودية في صيغتيهما المنحرفة، عندما واجههما الإسلام.

فالمسلم يقرأ فيما يتعلق بالنصرانية: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۚ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۝٨٩ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا ۝٩٠ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۝٩١ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٢ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ۝٩٣﴾ [مريم: ٨٨ - ٩٣].

ويقرأ أيضا: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۚ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي لِي مَذْبَحٌ لِعِبَادَةِ اللَّهِ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ۝٧٢ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَحْدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٧٣﴾ [المائدة: ٧٢ - ٧٣].

ويقرأ ويسمع فيما يتعلق بالموقف من اليهود عددا من الآيات القرآنية:

- ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوا هُزُوعًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (٥٨) ﴿قُلْ يَأَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْفِقُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ أَمَانًا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَتِنِقُونَ﴾ (المائدة: ٥٨ - ٥٩).

- ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران: ١١٨].

ويقراً في موقف اليهود والنصارى معا: ﴿وَلَنْ رَضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَبِيعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠].

العامل الثاني: ما تواترت به الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والإجماع العلمي بين العلماء من الأمر بعدم تقليد المسلم للديانات الأخرى في الجملة، وبخاصة في الرموز الدينية الخاصة، والدعوة للوعي بوجوب التمايز بين الإسلام والأديان الأخرى:

- السورة الكاملة: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ (١) ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ (٢) ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ (٣) ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ﴾ (٤) ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ (٥) ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (٦) ﴿الكافرون: (١ - ٦)﴾.

- ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [الشورى: ١٥].

- ويقول النبي ﷺ: (من تشبه بقوم فهو منهم)^(٤٥)، ويقول أيضا: (خالفوا المشركين وفروا للحي، وأحفوا الشوارب)^(٤٦).

لقد كان من المفترض أن يُوجد هذان العاملان (مناقضة الإسلام لعدد من تشريعات أهل الكتاب، ودعوته بوضوح إلى مخالفة هديهم) في المجتمع الإسلامي بيئة تتعوق تسامح المسلم تجاه اليهودية والنصرانية، لو لم يكن التسامح جزءا من جوهر الإسلام.

على أنه بالرغم من التناقض الظاهر بين هذين العاملين وبين ظاهرة التسامح تجاه أتباع الأديان والثقافات الأخرى التي كانت تحت سلطان المسلمين؛ إلا أنه عند التأمل يتبين عدم وجود تناقض في الحقيقة، إذ إن التسامح العظيم - كما تجلى في الظاهرة الإسلامية لدى المسلمين - لو شاع معه لديهم تقليد الأديان والثقافات الأخرى لأمكن أن يؤثر ذلك سلبا على الهوية الإسلامية. وعلى أن وجود الظاهرة الإسلامية في التسامح مصحوبة بالعاملين المشار إليهما هو دليل واضح على الارتباط الطبيعي بين ظاهرة التسامح والروح الإسلام.

وأخيرا؛ نقول - محترزين لهذا المبدأ - بأن مفهوم "التسامح" مفهوم فضفاض يتكئ عليه كثير ممن كتبوا عن الإسلام بحق أو باطل، ولذا كان لزاما بيان مدلوله بوضوح.

فإن أريد بالتسامح العفو والصفح في المعاملة، بالتنازل عن بعض الحقوق الشخصية، مالية أو معنوية، أو ما يحيله الشرع الإسلامي إلى اجتهاد ولادة أمور المسلمين في معاملة الحربيين من المن أو الفداء، حسب ما تقتضيه السياسة الشرعية، أو منح الذميين والمعاهدين والمستأمنين في

المجتمع الإسلامي حقوقاً مدنية، وإذنا في البقاء على دينهم وعباداتهم، من غير إكراه لهم على اعتناق الإسلام؛ فهو حقّ جاء به الإسلام، وحفل به تاريخه، وفاق به جميع الأديان، بشهادات كثيرة من غير المسلمين أيضاً.

وإن كان "التسامح" يعني المداهنة، وإعطاء الذنبة في الدين، وتسوية المسلمين بالمجرمين، وإدانة سيرة وطريقة السابقين من المسلمين، وإياحة المجتمع المسلم للتصير والإلحاد، لإشاعة الفاحشة الفكرية والخلقية في المؤمنين، باسم التسامح والحرية، ولتحسين صورة الإسلام؛ فما هذا بتسامح، بل هو خنوع وتنازل، فإن كان لا محالة واقع؛ فلا يكن ذلك باسم الإسلام، ولا يصلح أن نلبسه لبس الإسلام^(٧).

• المبحث الثالث: حرمة الدماء والأموال:

السلام مصطلح لا يعني عدم وجود الأعداء مطلقاً، إذ من طبيعة الحياة الدنيا أن يكون فيها الخير والشر يتعاركان حتى نهاية الزمان، وهي من السنن الكونية.

إن تعظيم حياة الإنسان وأمواله كانت مسألة لا تحمل تلك الأهمية قبل الإسلام في كثير من المجتمعات، وما من شك أن الحديث بمثالية في أن البشر والأمم كلهم سواء، فلا مكان للعداء بينهم؛ يبدو أنه أمر موغل في الخيال الذي قد لا يكون له وجود في الواقع.

كثير من الشعوب تبحث عن طريق لعيش الإنسان بسلام وأمن على نفسه وأمواله من غير أن نتجاهل الفوارق الدينية والثقافية التي فرضت نفسها في تقسيم العالم، وبمعنى آخر: إن الدين المتميز هو الدين الذي يُنظم حياة

البشر ويؤكد على الاهتمام بسلامة المخالفين في الاعتقاد ما لم يبارزوه بالعداوة وإعلان الحرب.

إن جميع البشر يحبون الحياة ويخشون من الموت، كما يحبون المال كثيرا، ويسلكون في طلبه الطرق المشروعة وغير المشروعة، لذا يبقى أن من مظاهر تميز الدين (أي دين)؛ احترام هذه الفطرة الإنسانية التي خلق الله البشر عليها وفطرحهم بها، الأمر الذي يجعل الحديث حول هذه المسألة من أهم المواضيع التي يهتم بها عامة الشعوب، وهذا ما سأتناوله بالحديث والتفصيل في هذا المبحث.

إن مفهوم السلام في الإسلام أشمل بكثير من عدم وجود حرب، إذ إن عدم الحرب هو جزء من السلام، ولكن في عدد من الأحيان يُكره الإنسان على الحرب، وربما انتصر فيها؛ هنا يكون للإسلام أيضا مفهوم للسلام، وهو الحرص على حرمة الدماء والأموال لغير المسلمين.

لقد تميز الإسلام بشكل واضح جدا، بل بما لا يوجد له مثيل مطلقا في وضع "قواعد قانونية" للتعامل مع دماء غير المسلمين وأموالهم، إلى درجة أن علماء المسلمين وضعوا كتباً تتكلم عن أحكام غير المسلمين حقوقا وواجبات، وألف ابن القيم كتابه "أحكام أهل الذمة" في القرن الثالث عشر الميلادي، الذي لم تجف فيه سيوف الأوربيين من دماء المسلمين في الحروب الصليبية، وبدأت تحد سكاكينها على أعدائها في أوروبا ببداية إنشاء محاكم التفتيش.

إن تميز الإسلام السلمي في الدماء والأموال لم يستطع المنصفون من الغربيين إلا أن يقفوا له تصفيقا واحتراما. فالمسلمون كان باستطاعتهم -وهم

الذين حكموا عدة بلدان - أن يستأصلوا شأفة اليهود والنصارى وغيرهم، ولكنهم لم يفعلوا لأن تعاليم دينهم تمنعهم أن يفعلوا ذلك.

يقول: "توماس آرنولد": (ومن هذه الأمثلة التي قدمناها آنفا عن ذلك التسامح الذي بسطه المسلمون الظافرون إلى العرب المسيحيين في القرن الأول من الهجرة، واستمر في الأجيال المتعاقبة؛ نستطيع أن نستخلص بحق أن هذه القبائل المسيحية التي اعتنقت الإسلام إنما فعلت ذلك عن اختيار وإرادة حرة، وأن العرب المسيحيين الذين يعيشون في وقتنا هذا بين جماعات مسلمة لشاهد على هذا التسامح)^(٤٨).

ويقول أيضا: (ويمكن الحكم على مدى التسامح -الذي يلفت النظر في تاريخ القرن السابع- من هذه العهود التي أعطاه العرب لأهالي المدن التي استولوا عليها، وتعهدوا لهم بحماية أرواحهم وممتلكاتهم)^(٤٩).

المطلب الأول: حرمة الدماء والاعتداء:

إن حرمة الدماء في الإسلام ليست مسألة ثانوية، بل أكد الإسلام كثيرا على احترامها وتعظيمها في أماكن متعددة من القرآن والسنة النبوية، ولأول وهلة من قراءة الآيات القرآنية أو الأحاديث النبوية نجد الكثير من النصوص الدالة على احترام النفس المعصومة، وعدم جواز التعدي عليها، وفي ذلك يمدح الله المؤمنين بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الفرقان ٦٨]، وتوعد من قام بذلك الفعل الشنيع بقوله تعالى: ﴿يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدُ فِيهِ مُهَانًا﴾ [الفرقان: ٦٩].

لقد ورد في القرآن الكريم قصة ابني آدم، وما حصل فيها من اعتداء أخ على أخيه بالقتل. وعظم الله هذه الحادثة، في القرآن: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا

عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ، مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ
النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴿٣٢﴾ [المائدة ٣٢].

ونجد في أحاديث نبي الإسلام ﷺ التحذير الشديد من جرائم الاعتداء
على حق حياة الإنسان، فقد قال لأصحابه يوماً مُحذِّراً لهم: (اجتنبوا السبع
الموبقات، قالوا يا رسول الله: وما هن؟ [وذكر منها] وقتل النفس التي حرم
الله إلا بالحق) (٥٠).

ويؤكد لهم هذا التعظيم عندما يقول: (لا يزال المؤمن في فسحة من دينه
ما لم يُصب دماً حراماً) (٥١).

والمعنى: سعة من دينه ورجاء رحمة من عند ربه، (ما لم يُصب دمناً
حراماً)، أي إذا لم يقتل نفساً بغير حق تُسهَّل عليه أمور دينه ويوفق للعمل
الصالح.

الموقف من الاعتداء على غير المسلمين:

قد يظن البعض أن نصوص الإسلام عندما تحرم القتل؛ إنما يراد بها
قتل المسلم. والحقيقة التي لا مرأى فيها أن نفس المسلم - سواء عربي وغير
عربي، أبيض أو أسود- يُعد الاعتداء عليها أشد حرمة.

وقد جاء هذا الحكم في القرآن الكريم بشكل واضح: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ
مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَعَظِيبَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ
لَهُ عَذَاباً عَظِيماً﴾ [النساء ٩٣].

إن مما يتميز به الإسلام أنه لا يقصر تحريم الاعتداء على حياة
الآخرين بالمسلمين فقط، بل يتعداهم إلى غيرهم، ممن لم يدخلوا في الإسلام،
وحفظ الإسلام لهم ذممهم.

جاء في تعليم نبي الإسلام ﷺ عدد من النصوص حول هذه المسألة، ومنها قوله: (من قتل معاهدا [غير مسلم أعطي عهد أمان] لم يَرَحْ رائحة الجنة وإنَّ ريحها توجد من مسيرة أربعين عاما)^(٥٢).

إن الأمن على الحياة مطلب إنساني لجميع الشعوب، ولذا نجد النصوص الإسلامية تركّز على هذا المطلب، وهو الأمر الذي دفع نبي الإسلام إلى أن يؤكد على المحافظة عليه، حتى مع غير المسلمين، ممن كفروا به، ولم يقبلوه كنبى. وفي هذا يحذر قائلا: (أيا رجل أمّن رجلا على دمه ثم قتله، فأنا من القاتل بريء وإن كان المقتول كافرا)^(٥٣).

وفي لفظة أخرى، نذكر حادثة حصلت لما فتح رسول الله ﷺ مدينة خيبر - وكانت من معاقل اليهود شمال المدينة المنورة- إذ دخلها الصحابي عبد الله بن سهل، ثم وُجد مقتولا ومرميا في أحد آبارها. فجاء أهله للنبي ﷺ يتهمون اليهود في قتله، فكتب رسول الله ﷺ إلى اليهود في ذلك، فكتبوا: إنا والله ما قتلناه. فقال رسول الله ﷺ لأهل القتل: (أتحلفون وتستحقون دم صاحبكم؟)، قالوا: لا، قال: (فتحلف لكم يهود؟)، قالوا: ليسوا بمسلمين. فدفع رسول الله ﷺ ديتة لأهله، وكانت مئة ناقة^(٥٤).

لا شك أن الشبهات القوية والقرائن الدالة كانت تحوم حول يهود خيبر، إذ وجد الصحابي المقتول بينهم، وألقي في بئر لهم، وكانت خيبر مدينة يهودية، ولكن نبي الإسلام حافظا منه على حرمة النفس، والعدل مع الأعداء، لم يأخذهم بهذه الشبهة القوية، ودفع بنفسه الدية عن هذا القتل^(٥٥).

ولقد كان بعض الناس يعتز بقوته، ويستغل ضعف غيره، فحذر من ذلك النبي ﷺ عندما قال: (إن أشد الناس عتوا رجل ضرب غير ضاربه، ورجل

قَتَلَ غَيْرِ قَاتِلِهِ، وَرَجُلٌ تَوَلَّى غَيْرَ أَهْلِ نِعْمَتِهِ، فَمِنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ كَفَرَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يُقْبَلُ مِنْهُ صَرْفٌ وَلَا عَدْلٌ^(٥٦).

ومع اتساع الفتوحات الإسلامية ربما حدث بعض التجاوزات أحيانا من ظلم للناس، أو قسوة عليهم، وهذا يكون عادة ممن يمكن أن نسميهم بأفراد الجيش. لكن إذ كانت هذه المواقف والأعمال لا توافق شريعة الإسلام؛ فإن علماء المسلمين لم يسكتوا عن تجاوزات عامة الناس أو حكامهم أيضا، لما يعلمون من تحريم الإسلام لتلك الأفعال.

مر صاحب النبي ﷺ هشام بن حكيم بن حزام على أناس من الأنباط [كانوا فلاحين] بالشام قد أقيموا في الشمس، فقال هشام: أشهد أنني سمعت رسول ﷺ يقول: (إن الله يعذب الذين يعذبون الناس في الدنيا)^(٥٧).

فهذا صاحب النبي ﷺ لم ينظر لاختلاف الدين بينه وبين هؤلاء، ولم ينظر لمصلحة اقتصادية يحققها المجتمع المسلم، وإنما نظر إلى شريعة يتبعها ويسير عليها، وهي تأمر بعدم الاعتداء، وعدم الظلم، والابتعاد عن هذه العقوبات التي تهبط بالكرامة.

المطلب الثاني: احترام أموال وحقوق غير المسلمين:

إن من التعاليم الواضحة في الشريعة الإسلامية عدم أكل أموال غير المسلمين، فليس من السهل على مسلم متدين أن يحكم على أخيه المسلم ضد كافر بدين الإسلام. ولقد كان رسول الله ﷺ لا يتوانى عن مثل هذه الحكم العادل، حتى مع أقرب الأصحاب له. بل إن مما يتميز به الإسلام؛ التنصيص على تحريم أموال المعصومين من غير المسلمين، وجعل ذلك قانونا لا يقل أهمية عن حفظ مال المسلمين.

فعن عبد الله ابن أبي حذرر الأسلمي: أنه كان ليهودي عليه أربعة دراهم، فاستعدى عليه [فاشكى عليه]، فقال: يا محمد! إن لي على هذا أربعة دراهم، وقد غلبني عليها، فقال النبي ﷺ: أعطه حقه، قال: والذي بعثك بالحق ما أقدر عليها، قال: أعطه حقه، قال: والذي نفسي بيده ما أقدر عليها... فخرج عبد الله باليهودي إلى السوق، وعلى رأسه عصابة [عمامة]، وهو متزر ببرد، فنزع العمامة عن رأسه فانزرها، ونزع البردة، فقال لليهودي: اشتر مني هذه البردة فباعها بأربعة الدراهم^(٥٨).

لم يتوان المسلمون الأوائل أن ينقلوا لنا الكثير من التعاليم السلمية التي تتعلق بغير المسلمين، والتي دعا إليها نبي الإسلام. إنها تؤكد بشكل واضح موقف المسلم من أموال غير المسلمين، لذا يقول نبينا مذكرا مراعاة حقوقهم المالية: (ألا من ظلم معاهداً، أو انتقصه حقه، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس؛ فأنا حجيجه يوم القيامة)^(٥٩).

لقد طبق المسلمون قواعد كثيرة أخرى جاءت على مر التاريخ في هذا الصدد، ولم يكن ذلك تحت ضغط منظمات إنسانية، أو اتفاقيات دولية، بل كان بمحض إرادتهم التي كان يملئها عليهم تعاليم دينهم. لقد كان هذا الأمر يقلق الخلفاء خاصة في العصر الأكثر عدالة في الإسلام (عصر الخلفاء الراشدين الأربعة)، ومن ذلك أن الخليفة الثاني "عمر بن الخطاب" كان يتفقد أحوال غير المسلمين من أهل الذمة، ويتأكد أن المسلمين لا يتعرضون لهم بأذى نظرا لتفوقهم الديني والسياسي. وفي ذلك ينقل الإمام الطبري أن عمر رضي الله عنه كان يسأل أحد الوفود القادمة من البصرة في العراق عن أحوال أهل الذمة هناك، فقال: (لعل المسلمين يفضون إلى أهل الذمة بأذى... فقالوا ما نعلم إلا وفاء وحسن ملكة)^(٦٠).

واستحلال أموال غير المسلمين - من غير المحاربين - أمر محرم عند علماء الإسلام، وكثيرا ما كانوا يوجهون أصحابهم فيما لو حصل هناك انتهاكات لحقوق غير المسلمين. وقد نقل علماء الإسلام طرفا من ذلك.

سأل رجل الصحابي "ابن عباس" رضي الله عنه، فقال: إنا نمر بأهل الذمة فنصيب من الشعر أو الشيء، فقال ابن عباس: لا يحل لكم من ذمتكم إلا ما صالحتموهم عليه.

وعن صعصعة قال: سألت ابن عباس فقلت: إنا نسير في أرض أهل الذمة فنصيب منهم، فقال: بغير ثمن؟ قلت: بغير ثمن، قال: فما تقولون؟ قلت: نقول حلالا لا بأس به! فقال أنتم تقولون كما قال أهل الكتاب: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمْنِ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٥].

وقال الصحابي خالد بن الوليد رضي الله عنه لأحد أصحابه: (لا ترزأ معاها إبرة فما فوقها)^(٦١). والمعنى: لا تنقص حق أحد من غير المسلمين ولو كان بقدر الإبرة. وحسبك بهذا وفاء.

وكان المسلمون بالجابية وفيهم عمر بن الخطاب فأتاه رجل من أهل الذمة يخبره أن الناس قد أسرعوا في عنبه، فخرج عمر حتى لقي رجلا من أصحابه يحمل ترسا عليه عنب، فقال له عمر: وأنت أيضا؟ فقال يا أمير المؤمنين: أصابتنا مجاعة. فانصرف عمر، فأمر لصاحب الكرم بقيمة عنبه^(٦٢).

وختاما: يبقى تميز الإسلام في مسألة حفظ الدماء والأموال بشكل واضح ينبئ عن مظهر واضح لمظاهر السلام المتعددة والكثيرة في الإسلام، وإن النصوص المفصلة في هذا الموضوع لأكبر الدلائل على عناية الإسلام

بالحياة السلمية مع المخالفين له في الديانة. لقد كانت هذه القوانين أمراً جديداً على الدنيا في ذلك الحين، فقد قلبت كثيراً من المفاهيم المتعلقة بالموقف من الأعداء، والتي في غالبها تسير في خط عدم التسامح والاستهانة بالأرواح والممتلكات.

إن المعلم الأبرز في هذه المسائل، أن الإسلام هو الدين الذي ينفرد عن غيره من الأديان السماوية، والذي ينص بشكل واضح على حقوق غير المسلمين (ليس أهل الكتاب فحسب) بل جميع غير المسلمين. وكفى بذلك شاهداً.

• البحث الرابع: الدعوة للعدل مع المخالفين؛

من أهم المظاهر السلمية التي تدل على نضج فكرة الحياة السلمية في أية ثقافة أو ديانة، تناولها وتطبيقها لمبادئ العدالة التامة مع الموافقين والمخالفين. قد يري البعض أن العدل عادة يكون مع الموافقين، إلا أن التميز أن تكون دعوات العدالة تشمل المخالفين سواء في السلم أو الحرب.

مبدأ العدالة والدعوة إليه يعد مبدأ أصلياً في الإسلام بين المسلمين أو مع المخالفين، وتعد المساواة فرع عن العدل، والكلام عنهما مرتبط ببعض، ولكن بينهما فرق. فالمساواة بين الأشياء المختلفة قد يكون ظلماً، والقول بتعميم المساواة دون مراعاة للفروق بين الأطراف؛ مجانب لمقتضى العدل. والمطلوب في الإسلام ليس إبعاد كافة الفروق بين البشر تماماً. إن هناك فرقاً - ولا شك - بين الإسلام والأديان الأخرى، ولكن المطلوب من منظور الإسلام أن تكون المساواة بين الصادق ومثيله، والمكافح ومثيله، والكافر ومثيله، فهذه مساواة عادلة (٦٣).

إذا تقرر ما سبق؛ فإن تميز الإسلام في هذا المبدأ أصبح معلما واضحا من معالمه، الأمر الذي دفع عددا من الخصوم أو المحايدين إلى الإعتراف بذلك. لقد كان هذا المبدأ يطبق داخل الدولية الإسلامية على جميع أفرادها بلا استثناء، ومع اختلاف الديانة، وحتى شمل حكامها وقادتها^(٦٤).

إن من يرى حال المخالفين في الاعتقاد قبل مجيء الإسلام ليعلم حقيقة العدل الذي أخذه هؤلاء الأقوام في ظل الإسلام، وكما تقول "زيغريد هونكه": (إن السادة والحكام المسلمين الجدد لم يزجوا أنفسهم في شئون تلك الشعوب الداخلية. فبطريك بيت المقدس يكتب في القرن التاسع لأخيه بطريك القسطنطينية عن العرب: "إنهم يمتازون بالعدل ولا يظلموننا البتة، وهم لا يستخدمون معنا أي عنف")^(٦٥).

وينقل المستشرق الإنجليزي "ترتون" من وثائق مكتوبة باليونانية مخطوطة في المتحف البريطاني حول أهل الذمة، بالتوصية بمعاملتهم بالعدل، وأخذ الجزية منهم على قدر الطاقة^(٦٦).

المطلب الأول: الدعوة للعدل من خلال نصوص الوحي:

إن الدعوة إلى العدل في القرآن الكريم والسنة النبوية تتميز بوجود حشد من الآيات والأحاديث التي لا تحث على فضيلة العدل فحسب، بل تنص بشكل واضح على أن هذا العدل يتأكد مع غير المسلمين أيضا، وهذا نقطة فريدة تظهر بشكل واضح في تعاليم الإسلام.

(العدل) هو القاعدة الأساسية في تنظيم علاقة المسلم بغيره، ويشمل ذلك العلاقات الدولية. والعدل في هذا المجال - وكما تظهر نصوص القرآن والسنة - هو القيمة الأولى بين القيم الإسلامية، وفي القرآن ورد الأمر

بالعدل والإشادة بالمُتصِفِين به، والنهي عن الظلم والتشنيع على مرتكبيه في أكثر من ثلاث مئة وخمسين موضعاً. ويعبر عن العدل أحياناً بالقسط وإقامة الميزان أو بما يدل على هذا المعنى. كما يعبر عن الظلم بالبغي والعدوان والبخس والطغيان^(٦٧).

لقد كان منهج العدل مع المخالفين في الديانة مطلوباً من المسلمين منذ بدايات نزول القرآن على النبي ﷺ، يوم كان المسلمون أقلية ضعيفة مضطهدة، حتى قوي واستبان أمره، وفي ذلك يقول القرآن: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [الشورى: ١٥].

ومراد الآية: (أمرت أن أقم بينكم العدل، بأن أدعوكم إلى الحق ولا أظلمكم لأجل عداواتكم، ولكني أنفذ أمر الله فيكم ولا أنتمي إلى اليهود ولا إلى النصارى)^(٦٨).

ومصادقاً لهذه الآية وغيرها، يروي الصحابي عبد الله ابن أبي حذرد الأسلمي: أنه كان لليهودي عليه أربعة دراهم، فاستعدى عليه [فاشتكى عليه]، فقال: يا محمد! إن لي على هذا أربعة دراهم، وقد غلبني عليها، فقال: أعطه حقه، قال: والذي بعثك بالحق ما أقدر عليها، قال: أعطه حقه، قال: والذي نفسي بيده ما أقدر عليها ... فخرج عبد الله باليهودي إلى السوق، وعلى رأسه عصاة [عمامة]، وهو متزرببرد، فنزع العمامة عن رأسه فاتزر بها، ونزع البردة، فقال لليهودي: اشتر مني هذه البردة فباعها بأربعة دراهم^(٦٩).

ومن عجيب خطاب القرآن في تناوله حالة اليهود في المدينة المنورة والذين كانوا يسكنون فيها نبي الإسلام ﷺ، وكيف أن طائفة من هؤلاء أرادت التلاعب في بالحكم والقضاء، مع عدم اعترافهم بنبوة النبي ﷺ، ثم نجد مع ذلك أن الخطاب القرآني يقول عن هذه الطائفة: ﴿سَمِعُوكَ لِكَذِبٍ أَكَلُونَ لِلشُّحِّ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (١٢) [المائدة: ٤٢].

والعدل في الإسلام قيمة مطلقة، ذو ميزان واحد يلتزم به المسلم كواجب أساسي في المنشط والمكروه، وفي حالة الصداقة والعداوة؛ في القول والعمل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَى ءَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

يقول القرطبي: (ودلت الآية أيضاً على أن كفر الكافر لا يمنع العدل عنه، وأن يقتصر معهم على المستحق من القتال والاستترفاق؛ وأن المثلة [التمثيل بأجساد الأعداء] بهم غير جائزة، وإن قتلوا نساءنا وأطفالنا، وغمونا بذلك؛ فليس لنا أن نقتلهم بمثله قصداً لإيصال الغم والحزن إليهم) (٧٠).

ويشهد لهذا التفسير الآية الأخرى التي نتحدث عن موقف المسلمين من أعدى الأمم لهم وهم عبدة الأوثان من المشركين، والذين نكلوا بهم - أشد التكيل - سنين طويلة في مكة، بل أيضاً زادوا أن صدوهم عن أحب البقاع وأطهرها عندهم، ومع ذلك يأتي التوجيه: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ أَن

صَدُّوَكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِلْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾ [المائدة: ٢].

العدل هو الحد الأدنى في معاملة المسلم لغيره، ولكن المسلم مدعو وراء العدل إلى درجات أعلى، فإذا كان العدل يتحقق بالمعاملة بالمثل، فالمسلم مدعو في القرآن والسنة إلى الصبر والعفو ومقابلة السيئة بالحسنة والبر والإحسان.

قال تعالى: ﴿تَبَلَّوْا فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُوا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِنْ تَصِيرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ آل عمران: ١٨٦

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ (٣٩) وَحَزَّوْا سَنِيَةً سَنِيَةً مِنْهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٢) وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣)﴾ [الشورى: ٣٩ - ٤٣].

إن مفهوم "الناس" في الآيات الأمرة بالعدل لا تفرق بين المسلم وغيره، بل المسلم مأمور تماماً بالعدل بين الناس أياً كانوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨].

إن تعاليم القرآن الكريم المتوافرة في العدل بين الناس أياً كان دينهم؛ كان مبدأ مطبقاً عند نبي الإسلام ومحبوباً له، وهو الأمر الذي سار عليه أصحابه بعده. إن محبته لهذا المبدأ دفعته للثناء على ملك الحبشة الذي كان

على النصرانية، وقال عنه: (إن بأرض الحبشة ملكا لا يُظلم أحد عنده، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجا ومخرجا مما أنتم فيه). تقول أم سلمة: فخرجنا إليها أرسالا، حتى اجتمعنا ونزلنا بخير دار إلى خير جار؛ أمنا على ديننا ولم نخش منه ظلما^(٧١).

المطلب الثاني: العدل كمنهج للدولة الإسلامية:

مما يؤكد هذا المنهج النبوي في تطبيق مبادئ حفظ العدالة العامة؛ ما حدث في أيام الجاهلية قبل الإسلام من محاولة بعض قبائل العرب في مكة - وقبل البعثة النبوية- بالعمل على رد الحقوق وعدم الظلم، وإنشاء حلف في هذا، يُسمى "حلف الفضول"، وفي ذلك يقول النبي ﷺ: (لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحبُّ أن لي به حمر النعم، ولو أدعى به في الإسلام لأجبت)^(٧٢).

العدل في الدولة الإسلامية ليس وهما، بل كان مطلوبا من كل أحد إلى كل أحد، وأول هؤلاء الحاكم العام وولاته من تحته في تعاملهم حتى مع غير المسلمين. فقد كان عمر رضي الله عنه مهتما بالوفاء لأهل الذمة حتى في الرمق الأخير من حياته، ولذا فقد أُملي وصية قبيل وفاته للخليفة الذي سيُنتخب بعده. وبالرغم من اختصارها وإيجازها إلا أنه لم ينس فيها الإشارة إلى تلك الشعوب التي لم تدخل في الإسلام، ورضي الإسلام أن يبقوا بين ظهرائه بدفع الجزية، ومما قال: (أوصي الخليفة من بعدي بالمهاجرين الأولين خيرا؛ أن يعرف لهم حقهم، وأن يحفظ لهم حرمتهم، وأوصيه بالأنصار خيرا، الذين تبوءوا الدار والإيمان؛ أن يقبل من محسنهم ويعفوا عن مسيئتهم، وأوصيه بذمة الله وذمة رسوله ﷺ، أن يوفي لهم بعهدهم، وأن يقاتل من وراءهم، وألا يكلفوا فوق طاقتهم)^(٧٣).

ونتيجة هذه التعاليم الراشدة حول غير المسلمين؛ فلا غرابة من سماعنا بأن على القاضي المسلم أن يقضي بالعدل لغير المسلم في مجلس القضاء ولو كان الخصم مسلماً. ويذكر المؤرخون قصة مشهورة عن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما جاءه قبطي من مصر، فقال له: يا أمير المؤمنين: عائد بك من الظلم! قال: عذت معاذاً، قال: سابقت ابن عمرو بن العاص [والي مصر] فسبقتَه فجعل يضربني بالسوط ويقول أنا ابن الأكرمين، فكتب عمر إلى عمرو يأمره بالقدوم عليه ويقدم بابنه معه، فقال عمر: أين المصري؟ خذ السوط فاضرب. فجعل يضربه بالسوط، ويقول عمر: اضرب ابن الأليمين، قال أنس [راوي القصة]: فضرب، فو الله لقد ضربه ونحن نحب ضربه [لكونه من إقامة العدل]، فما أفلح عنه حتى تمنينا أنه يرفع عنه، ثم قال عمر للمصري: ضع على صلعة عمرو، فقال الرجل: يا أمير المؤمنين إنما ابنه الذي ضربني، وقد اشتفيت منه، فقال عمر لعمرو: مذ كم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً، قال: يا أمير المؤمنين لم أعلم ولم يأتني^(٧٤).

كما أن القارئ لكتب تراث علماء المسلمين ليجد فيها تأكيداً شديداً على تحقيق هذا المبدأ مع غير المسلمين^(٧٥)، في الوقت الذي كان كبار علماء التلمود يقررون بعض مبادئ الاعتداء والتساهل في العدل التام مع غير اليهود^(٧٦). وأيضاً كانت هذه التعاليم من علماء الإسلام تؤكد أخلاقياتها قبل أن نشن أوروبا بقيادة الباباوات حربها المقدسة الصليبية ضد المسلمين بطرائق حربية منافية للإنسانية، كان من أهدافها التدمير والقتل^(٧٧)، وقبل أن تقوم الكنائس الكاثوليكية في الغرب بتخيير المسلمين بين الدخول في النصرانية أو الطرد أو الحرق بالنار^(٧٨).

ونحن هنا إذ نذكر تواريخ أفعال المسلمين مع غيرهم من غير المسلمين؛ حتى يتسنى لنا المقارنة بين منهج الإسلام في سبقه لهذه العدالة، وبين منهج غيره من الأديان.

وهنا نذكر حادثة عن عمر ابن عبد العزيز (١٠١هـ / ٧١٩م) -والذي يُسمى خامس الخلفاء الراشدين لعدله وفقهه في الدين، حتى إن الفقهاء ما زالوا يحتجون بأرائه الفقهية- لما ولي الخلافة بدأ ينظر في المظالم السياسية التي كان يمارسها بعض أفراد السلطة الحاكمة قبله، وقال: (ألا من كانت له مظلمة فليرفعها، فقام إليه رجل ذمي من أهل حمص فقال: يا أمير المؤمنين أسألك كتاب الله، قال: ما ذاك؟ قال: إن العباس بن الوليد بن عبد الملك [أحد أفراد الأسرة الحاكمة] اغتصبني أرضي، والعباس جالس، فقال له عمر: يا عباس ما تقول؟ قال: نعم! أقطعنيها أمير المؤمنين الوليد، وكتب لي بها سجلا، فقال عمر: ما تقول يا ذمي؟ قال: يا أمير المؤمنين أسألك كتاب الله تعالى [يقصد أطلب العدل الذي أمر به في القرآن الكريم كثيرا]. فقال عمر: نعم، كتاب الله أحق أن يتبع من كتاب الوليد، قم فاردد عليه ضيعته، فردها عليه^(٧٩).

وهذا الإمام الأوزاعي (١٥١هـ / ٧٦٧م) بلغه أن بعض أهل الذمة من سكان جبل لبنان خرجوا عن طاعة الحاكم السياسي وأحدثوا إحداثا، وكان والي الشام آن ذاك صالح بن علي، فحارب جميع أهل الذمة في جبل لبنان وأجلاهم، فكتب "الإمام الأوزاعي" إلى صالح رسالة طويلة يلومه فيها على فعله معهم، وكان مما كتب: (قد كان من إجلاء أهل الذمة من أهل جبل لبنان مما لم يكن تمالأ عليه خروج من خرج منهم، ولم تطبق عليه جماعتهم، فقتل منهم طائفة ورجع بقيتهم إلى قراهم، فكيف تؤخذ عامة بعمل خاصة،

فيخرجون من ديارهم وأموالهم، وقد بلغنا أن من حكم الله جل وعز أنه لا يأخذ العامة بعمل الخاصة... من كانت له حرمة في دمه فله في ماله والعدل عليه مثلها، فإنهم ليسوا بعبيد، فتكونوا -من تحويلهم من بلد إلى بلد- في سعة، ولكنهم أحرار أهل ذمة^(٨٠).

يقول الإمام محمد بن الحسن الشيباني (١٨٩ هـ / ٨٠٤ م) متحدثاً عن غير المسلمين من أهل الذمة: (لأن المسلمين حين أعطوهم الذمة فقد التزموا دفع الظلم عنهم، وهم صاروا من أهل دار الإسلام)^(٨١).

هذه صور العدالة التي قدمها الإسلام في نصوصه المقدسة، وقام بها علماء الإسلام، ودعوا لها منذ بدايات فجر الدولة الإسلامية.

• المبحث الخامس: محبة الأعداء والولاء للجماعة:

نختم هذه الدراسة بموضوع مهم أحدث خللاً وارتباكاً بين العلماء والمتقنين والباحثين في النظرة السلمية ومدى علاقتها مع اللحمة الجماعية للمجتمع الإسلامي. خاصة إذا علمنا أن هناك نداءات تنادي بالمحبة الشاملة؛ حتى لأولئك الذين يُظهرون عداوة لنا.

المطلب الأول: النظرة الواقعية في مفهوم المحبة:

إن الواقعية مطلب أساسي في نهضة أي دين أو ثقافة. وأعني بذلك أن تكون التعاليم والتشريعات تقبل التطبيق الواقعي ولو كان هناك شعور بالنقص أو حاجة للكمال في بعض الصور، وقد تكون بعض التشريعات فيها نوع من الشدة أو اللين، لكنها تبقى واقعية.

في عدد من الأحيان تكون التشريعات الدينية واقعية في ذاتها، وقد تكون متناقضة أحياناً عند بعض الناس، لكن ظهر في العصور المتأخرة - التي

أصبحت تهيمن عليها الثقافة الغربية بثوبها العلماني - توجهات كبيرة للدعوة للسلام في ظل الأمم المتحدة، وأصبح نتيجة لذلك أن لغة السلام أصبحت طاغية في أي ميدان، حتى أضحت تلك اللغة - عند كثير من الشعوب "المضطهدة" - أكذوبة من الأكاذيب، نظرا لكونها تنظيرا قد لا يكون حقيقيا في ذاته، ولما رأت تلك الشعوب المغلوبة من استعمال هذه العبارة كثيرا، بينما هم يقعون تحت ويلات الاحتلال والتسلط، ما يمكن أن نسميه "سلام القوة".

هناك دعوة تُسمع هنا وهناك للمحبة؛ هذه الدعوة نظرا لكونها لم تفرق بين المحبة من جهة، وبين العدل والتعاون على المصالح البشرية من جهة أخرى؛ أصبحت عند الكثير لا وجود لها في الواقع الفعلي وإن وجدت في التصور العقلي.

تبقى إشارة مهمة في هذا الموضوع الذي يُعنى ببيان حقيقة موقف الإسلام من هذا الموضوع، وهي مسألة عدم التفريق بين مناهج علماء الدين القدماء و من يسير على خطاهم، وبين التيارات المعاصرة والمختلفة. وهذا الأمر بدأ يظهر واضحا عند المهتمين بمثل هذه الدراسات. ففي الإسلام يظهر الاتجاه الفقهي السلفي (يمثله الفقهاء الأربعة وأتباعهم) إزاء الاتجاه العقلاني الإسلامي المتأخر، وهو الذي له اجتهادات تتنازل أحيانا عن أهمية اعتماد ظواهر النصوص بمعارضة العقل لها، مما يؤدي إلى البحث عن تأويلات قد تكون بعيدة عن مراد النص. وهو اتجاه لم يعد مجهولا في خطابات "غير المسلمين" الدارسين للإسلام. ونفس الأمر يظهر في اليهودية بشكل أكثر توسعا، فنرى هناك حاخامات "إصلاحيين" يرون استبعاد تطبيق النصوص المقدسة في العهد القديم والتلمود على الحياة المعاصرة، وهو

الأمر الموجود بجرأة أيضا عند عدد من اللاهوتيين النصارى خاصة الغربيين، وبشكل أكبر في التيار البروتستانتي^(٨٢). وهذا يفسر لنا ما يمكن أن نسميه تناقضا في تلك الأديان.

ابتداء، لا بد من الإقرار بأن الهوية الفكرية والخصوصية الثقافية مسألة حتمية، ومسلمة لا يمكن مناقشتها أو إعادة النظر فيها، بغض النظر عن الكلام الطويل والجدل الدائر حول العولمة ومفهوم القرية الكونية. إن الكلام عن موت العقائد والأفكار ونهاية التاريخ قضية لا تصمد أمام النقد الموضوعي. سيظل العالم وستبقى الثقافات والحضارات بأبعادها التاريخية وأفعالها المكتسبة هي المحرك الرئيس لسياسات الأمم والشعوب. والدين كمنظومة فكرية، يبقى مغروسا في عمق ذاكرة الأمم والشعوب^(٨٣).

إن اعتقاد المرء أنه على حق في مسألة ما، وأن من خالفه على باطل، واعتقاد المخالف في نفسه أنه هو الذي على الحق، لا بد أن يحدث بين الاثنين تقاصلا وعدم التقاء، بقدر أهمية المسألة المختلف فيها، الأمر الذي لم ينفرد الإسلام بتقنينه، بل هو موجود في الأديان الأخرى بشكل واضح.

لقد أشرت سابقا إلى وجود مظاهر كثيرة في الإسلام يظهر منها أمارات التسامح والإحسان مع غير المسلمين، وبشكل لا نجده مطبقا في الواقع الفعلي عند أي ديانة أخرى. أيضا لاحظنا أن هناك دعوة إلى الإحسان، إلا أن هناك تساؤلات مطروحة على مستوى الأديان الثلاثة: الإسلام، اليهودية، النصرانية، من خلال نصوصهم المقدسة، ألا وهي:

هل من الممكن أن تكون الأديان تدعو إلى محبة الأعداء وتجعل محبة أفرادها كمحبة أعدائها في الدين؟

إن الحديث بصراحة عن هذا السؤال يُعد أمراً شائكاً، إن كنا نريد جواباً يحكي واقعا حقيقياً داخل النصوص المقدسة عند أتباع الأديان، ومن فهم علماء الأديان أنفسهم له، لا واقعا فكريا إعلاميا أو سياسيا يفتّطع من النصوص ما يُناسبه، ويستبعد ما لا يناسبه، تمشياً مع الاتجاه العصري في ذلك!

ونحن في هذه الدراسة نحاول مناقشة ذلك من خلال الواقع الحقيقي في الإسلام، وسيُفرد الحديث حول موقف الأديان في بحث آخر -إن شاء الله- إذ الخطابات الإعلامية التي تقال هنا وهناك حول التسامح الديني وحصر الحملة على دين الإسلام، أصبح أمراً لا يحتمل القبول، ولا يحتمل أن يبقى المسلمون يصدقون ما يقال عن دينهم، وكأنه الوحيد في ذلك الشأن!

المطلب الثاني: الدعوة للمحبة ومفهومها في الإسلام:

لقد شنت الحملة الكبرى على الإسلام، وكان علماء أوروبا -كما تقول الكاتبة البريطانية كارين أرمسترونج- يهاجمون الإسلام باعتباره عقيدة تجديف في الدين، ويضعون محمداً ﷺ بأنه المدعي الأكبر، ويتهمونونه بأنه أنشأ دينا يقوم على العنف، ويمتشق السيف لفتح العالم. وأصبح اسم محمد بمثابة الشبح الذي يخيف الناس في أوروبا. لقد أصبحت هذه الصورة الزائفة للإسلام تمثل إحدى الأفكار الراسخة في أوروبا، بل لا تزال تؤثر في آراء كثير من العلماء الأوروبيين المحدثين تجاه الإسلام^(٨٤).

وهنا لا بد أن نعترف أن الإسلام عندما جاء لم يأت بعنصرية لطائفة عربية مثلاً دون غيرها، بل جاء بدين يحاول جمع البشرية حول إله واحد ودين واحد، ويجعل الولاء الأكبر لله ورسوله. كما قال نبيه صلى الله عليه

وسلم: (يا أيها الناس، ألا إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا أسود على أحمر، إلا بالتقوى) (٨٥).

وأيضاً فقد جاء الإسلام بقضية كبرى في الدعوة إلى محبة المؤمنين بعضهم لبعض، وموالاته بعضهم بعضاً: ﴿وَالْمُؤْمِنَتُ بَعْضُهُنَّ أَوْلِيَاُ بَعْضُهُنَّ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

ونبي الإسلام ﷺ يقول: (مثل المؤمنين في توادهم وتراحيمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى) (٨٦).

لقد ذم الله اليهود في القرآن بصفة سيئة عندما وصفهم بأنهم يأخذون من كتبهم ما يناسب مع مصالحهم الشخصية وعلاقاتهم السياسية (٨٧)، وقال موبخاً لهم على ذلك: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥].

إن المتابع لكثير من مؤتمرات الحوار التي تقام بين الأديان، أو الناظر في عدد من المصنفات التي تتحدث عن ذلك ليلفت نظره لغة خطاب تتحدث عن اجتهادات فكرية مستلهمة آراءها من نصوص مقدسة عند قائلها، إلا أنها في نفس الوقت ليست حاكية جميع ما يمليه النص. وبعبارة أخرى؛ أصبح عدد لا يُستهان به يعتقد أولاً، ثم يستدل ثانياً، لكنه استدلال ناقص.

وهذه الظاهرة ليست خاصة ببلاد المسلمين، بل هي ظاهرة توجد عند اليهود والنصارى. ونحن في بلاد الإسلام نشهد أحيانا لغة خطابية تُظهر بعضا من نصوص القرآن والسنة وتتجاهل تماما نصوصا صريحة أخرى تخالف توجهات كاتبها، حتى أضحي بعض المسلمين، وبعض ممارسي الدعوة للإسلام يُسابق لتكييف القرآن والسنة النبوية على أحداث الحياة المعاصرة، بشكل لا تسمح به النصوص.

لقد أحس بعض هؤلاء نوعاً من الحرج من آيات الولاء والبراء في القرآن الكريم، وراحوا يتأولونها بتأويلات غريبة عن ظاهر القرآن ونصوص السلف^(٨٨)، وقد يكون سبب ازدياد هذه الظاهرة في بعض المؤلفات الإسلامية؛ الظن بأن مسألة "الولاء والبراء" أمر انفرد به الإسلام ولا وجود له في الأديان الأخرى^(٨٩). لكن لما كان المسلمون - على ما فيهم من تقصير - هم أكثر أتباع الأديان التزاما حرفيا بكتبهم المقدسة (القرآن والسنة النبوية)؛ أصبحت الحملة واضحة على الدين الإسلامي وأتباعه، بخلاف اليهود والنصارى؛ فكثير منهم انتسابه لدينه يعد انتسابا قوميا أكثر منه انتسابا عقديا وتطبيقيا، وخاصة في الدول الغربية.

إن معتقد الولاء والبراء في نصوص الكتاب والسنة مرتبط بوجود الإسلام، فما دام في الأرض مسلم موحد، وفي الأرض كافر أو مشرك فلا بد أن يكون هناك ولاء وبراء، ومع ذلك فلا بد من بيان عدم تعارض معتقد (الولاء والبراء) مع مبادئ الوسطية والسماحة والرحمة التي سبق أن أشرنا لها في المبحث السابق.

إنا نقرأ في نصوص القرآن عددا من الآيات قد يراها البعض متناقضة^(٩٠):

- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الممتحنة: ١].

- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ [الممتحنة: ١٣].

- ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا ءَابَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢].

ومن ناحية أخرى؛ تجد آيات قرآنية وأحاديث نبوية تحث على البر والسلام والصلة، مثل:

- ﴿لَا يَنْهَكُوكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَيُقْسِلُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِلِينَ ۝٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُم فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٨ - ٩].

- وفي الصدقات على غير المسلمين: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُّوفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

- وفي الأسرى (وهم ليسوا من أهل الإسلام): ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حِدِّهِمْ مِّسْكِينًا وَنِيْمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨].

فهذه النصوص تُظهر مرة المعادة لغير المسلم، ومرة أخرى البر والصلة...

وليس هذا من قبيل التناقض، أو فرصة للانتقائية من النصوص، بحيث يبحث كل واحد عما يناسب ميوله فيها. وهذه المشكلة - أي الانتقائية - أصبحت ظاهرة بين غلو وجفاء، سواء من المسلمين أو من غيرهم.

وينبغي أن يُعلم أن هناك فرقا دقيقا بين مفهوم الموالة التي تكون للمسلم، ومفهوم الأمر بالإحسان والصلة والبر لغير المسلمين ممن لم يشهروا العداء والقتال للمسلمين. والذي لا شك فيه أن الإسلام يوجد به عدد من الآيات تحرم موالة الكفار وعدم مودتهم، وذلك لعدم إيمانهم بالله ورسوله، بل هذه الموالة التامة المطلقة لغير المسلمين - التي تمنع وجود التمييز بين الإسلام وغيره - تعد من أخطر الأمور على عقيدة المسلم.

يقول ابن تيمية معلقا على الآية القرآنية: ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَسِقُونَ﴾ [المائدة: ٨١]: (فدل على أن الإيمان المذكور ينفي اتخاذهم أولياء ويضاده، ولا يجتمع الإيمان واتخاذهم أولياء في القلب)^(٩١).

ولم يترك علماء الإسلام التعليق على مثل هذه الجزئية العميقة، فيقول ابن حجر حول آية: ﴿لَا يَتَّخِذُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُعْطِلُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾ ما نصه: (البر والصلة والإحسان لا يستلزم التحابب والتوادد المنهي عنه في قوله

تعالى: ﴿لَا يَحْدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، فإنها عامة في حق من قاتل ومن لم يقاتل^(٩٢).

ويقول ابن الجوزي: (وهذه الآية رخصة في صلة الذين لم ينصبوا الحرب للمسلمين وجواز برهم وإن كانت الموالاة منقطعة منهم)^(٩٣).

إن كل مبدأ ومذهب يعتقده جماعة من الناس، ويخالفهم فيه آخرون؛ لا بد أن يحدث اجتماع تلك الجماعة عليه بينهم تعاون وتناصر فيه، ولا بد أن يحدث عند مخالفيهم محاولات في تغيير مبادئ تلك الجماعة ومذاهبها. وهذا سيؤدي إلى التصادم وإلى المعاداة بينهما، واللذان يختلفان في حدتهما وضعفهما بحسب مقدار التباين بين المبدئين والمذهبيين.

إن النظريات المثالية لم ولن تجد لها وجوداً على أرض الواقع؛ فلا فائدة منها؛ وأيضا النظريات العدائية التي تهدف إلى الإبادة والقتل المجرد، ومنع التعاون السلمي؛ هي أيضا لن تجد لها محبا وناصرا. وهذا ما يميز منهج الإسلام في مسألة الموقف من غير المسلمين الذين يظهرون له العداء، فهو بلا هوادة لا يترجع عن مواجهة من أعلن العداء، لكنه في نفس الوقت نجده يمد يد العون لإنقاذهم من الظلم الذي هم فيه، ويمد لهم يده للإحسان والرحمة عندما لا يبادرونه بالعداوة.

والآيات القرآنية عموما توضح لنا أن من أبدى عداا للمسلمين وأضرمر شرا لهم فلا بد أن يكون المسلمون أشداء عليه مبغضين له^(٩٤)، وهو المقصود والله أعلم من آيات الغلظة على غير المسلمين، والتي سبق ذكرها قريبا، وهم المراد -والله أعلم- بقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَتَلُوا فِي

الَّذِينَ الْمَمْتَحَنَةِ: [٨ - ٩].

أما من أبدى التعاطف والسلام؛ فالمشروع في حقه البر والرحمة والصلة، ولعل هذا هو المراد بالآية: ﴿لَا يَنْهَكُكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَيِّلُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ [الممتحنة: ٨ - ٩].

وهي أيضا مقرره في قول الله: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْتَحْ هَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنفال: ٦١]

هذا منهج الإسلام وهو المنهج الذي سيتبين أنه الوسط، وهو الموائم لفطرة الإنسان، خاصة عندما نقارنه بما يوجد عند غيره من الأديان، ولا يتسع المجال هنا لتفصيل ذلك.

• خاتمة البحث:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله. وبعد:

في ختام هذه البحث، يسرني أن أخص للقارئ أهم ما توصلت إليه من أهم النتائج والتوصيات:

- من الواضح أن مفهوم السلام (بمعنى منع الحرب) لم يكن مفهوما غريبا على نصوص الإسلام.

- هناك شمول واضح في مفهوم السلام في الإسلام، حيث يتسع لكثير من المعاني، وليس هو مفهوم ضيق كما يعتقد البعض.

- لا يمكننا القول مطلقا أن الحرب الحرب لم تكن أداة من الأدوات التي استعملها الإسلام في التصدي لمن أراد من منع المسلمين من الدعوة إلى دينهم.

- من الواضح تماما حرص الإسلام على سلامة أرواح غير المسلمين، ولم

يكن من أهداف الإسلام العمل على قتل أعداءه، بقدر ما هو الحرص على هدايتهم.

- لا نجد ديانة أوضح من الإسلام في سننها قرآنيين تنص على حماية غير المسلمين، وتكفل لهم الحقوق الواضحة كمواطنين داخل الدولة الإسلامية.

- تميز المسلمون على مر التاريخ بالإحسان لغير المسلمين، انطلاقاً من تلك التعاليم المتعددة في دينهم، التي لا تبيح فحسب؛ بل تحث في أحيان متعددة إلى الإحسان لغير المسلم.

- هناك اختلاط وخط بين مفهوم الإحسان والتسامح مع غير المسلمين، وبين وجود عقيدة الولاء والبراء، إذ وجود أحدهما لا يمنع الثاني.

- توصي الدراسة بتكثيف الدراسات حول المسائل المعاصرة المتعلقة بالأديان عموماً، إذ إن هذا المجال من الدراسات لا يلقى اهتماماً من الباحثين.

- مع وجود دعوة قرآنية للحوار؛ توصي الدراسة بأن يكون هناك دراسات جادة حول المنهجية العلمية التي ينبغي أن نتبعها في دراسة أديان وثقافات غير المسلمين.

- لا بد من العمل على دراسات في مفهوم السلام في الأديان الأخرى للمقارنة بينه وبين مفاهيم الإسلام. وهذا النوع من الدراسات يظهر مزايا الدين الإسلام بشكل فاعل.

• حواشي البحث:

- (١) راجع مثلاً مقالة: "السلام في التصور الإسلامي" (ضمن كتاب: سلام للبشر، ص ٧٧) وهو ضمن سلسلة طويلة جداً تضم (حسب المتوفر عندي) ٢٨ جزءاً بعنوان: المسيحية والإسلام في الحوار والتعاون، من مركز الأبحاث في الحوار المسيحي الإسلامي، وتصدر من: المكتبة البولسية في لبنان، بإشراف أستاذ اللاهوت والأديان: عادل تيودور خوري. وأيضاً تجد هذا التوجه في: المجتمع الإسلامي والعلاقات الدولية، محمد عفيفي، ص ٢٢٢.
 - (٢) موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، عبد الوهاب المسيري ٢٥/١ .
 - (٣) تفسير الطبري (جامع البيان) ٤٠/١٤ .
 - (٤) تفسير ابن كثير (تفسير القرآن العظيم) ٨٤/٤ .
 - (٥) تفسير الطبري (جامع البيان) ٢٥٣/١٤ .
 - (٦) مسند أحمد ٩٠/١، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٢٣٤/٧: رجاله ثقات.
 - (٧) صحيح مسلم (١٧٨٠).
 - (٨) سنن البيهقي الكبرى ١١٩/٩ .
 - (٩) السلي: الغشاء الذي يكون فيه جنين الحيوان.
 - (١٠) صحيح البخاري (٢٣٧)، صحيح مسلم (٤٧٥٠).
 - (١١) صحيح البخاري (٣٠٥٩)، صحيح مسلم (١١١).
 - (١٢) صحيح البخاري (٣٦٧٨).
 - (١٣) راجع توسعاً حول هذه المسألة في: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، مهدي رزق الله ص ١٦٥-١٩٥.
 - (١٤) العقيدة والشرعية في الإسلام، جول تسيهر ص ٤٦ .
 - (١٥) حضارة العرب، غوستاف لوبون، ص ٦٠٥.
 - (١٦) صحيح مسلم (٢٢٧).
- الذمة: الحرمة والحق، وأما الرحم: فلكون هاجر أم إسماعيل منهم، وأما الصهر فلكون مارية أم إبراهيم منهم. راجع: شرح النووي على مسلم ٩٧/١٦ .

(١٧) شمس العرب تسطع على الغرب، زغيريد هونكه، ص ٣٥٧ .
 (١٨) المغول، ويُقال لهم "النتر": ويهمنا الحديث عن المغول لعلاقتهم مع الحضارة الإسلامية وكيف كانت الثقافة السائدة آن ذاك لتعرف كيف كانت ثقافة الإسلام مقارنة بها. فهم قوم غزوا البلاد الإسلامية في القرن السابع بقيادة "جنكيز خان" السلطان الأعظم عند التتار، ووالد ملوكهم، وقد خرجوا مما يسمى في هذا العصر بدولة الصين. (انظر: البداية والنهاية لابن كثير ١١٧/١٣-١٢١).

ويحكي لنا المؤرخ ابن الأثير عن قصة دخول المغول واجتياحهم بلاد المسلمين، وهو الذي قد عاصر هذا الحدث، وقال عنه: (لقد بقيت عدة سنين معرضا عن ذكر هذه الحادثة استعظاما لها كارها لذكرها، فأنا أقدم إليه رجلا وأؤخر أخرى، فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين، ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك. فيا ليت أُمي لم تلدني، ويا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا، إلا أنني حثي جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف، ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدي نفعا، فنقول: هذا الفعل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التي عقت الأيام والليالي عن مثلها، عمت الخلائق وخصت المسلمين، فلو قال قائل: إن العالم مذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم إلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقا، فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها، ومن أعظم ما يذكرون من الحوادث ما فعله بختنصر ببني إسرائيل من القتل وتخريب البيت المقدس، وما البيت المقدس بالنسبة إلى ما خرب هؤلاء الملاعين من البلاد التي كل مدينة منها أضعاف البيت المقدس، وما بنو إسرائيل بالنسبة إلى من قتلوا، فإن أهل مدينة واحدة ممن قتلوا أكثر من بني إسرائيل، ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة إلى أن ينقرض العالم وتفنى الدنيا.

وهؤلاء لم يبقوا على أحد بل قتلوا النساء والرجال والأطفال وشقوا بطون الحوامل وقتلوا الأجنة، فإننا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم) الكامل في التاريخ، ابن الأثير ١٠/٣٩٩ .

(١٩) قصة الحضارة ١٣/١٥٠ .

- (٢٠) مسند أحمد بن حنبل ٢٤٧/٥، وصححه الألباني في: سلسلة الأحاديث الصحيحة، (٩٩٨).
- (٢١) راجع: الولاء والبراء بين الغلو والجفاء في ضوء الكتاب والسنة، حاتم بن الشريف، ص ٤٧، وأيضا كتاب آخر مهم هو: غير المسلمين في المجتمع المسلم، منقذ السقار، فهو كتاب هام، يبين -بالنصوص الموثقة- أحوال غير المسلمين في بلاد المسلمين.
- (٢٢) صحيح مسلم (٦٩).
- (٢٣) سنن الترمذي (١٩٢٤)، وقال: حسن صحيح.
- (٢٤) صحيح البخاري (٦٩٤١).
- (٢٥) تفسير الطبري ٣٢٣/٢٣.
- (٢٦) راجع: غير المسلمين في المجتمع المسلم، منقذ السقار، ص ٢١.
- (٢٧) صحيح البخاري (١٢٩٠).
- (٢٨) صحيح البخاري (٥٤٣٠)، صحيح مسلم (٢١٨٩).
- (٢٩) مسند أحمد ٢١٠/٣. وفي تحقيق المسند (ط. الرسالة، برقم: ١٣٢٠١): إسناده صحيح.
- (٣٠) رواه البخاري (٢٤٧٤)، ومسلم (٢١٩٠).
- (٣١) سنن أبي داود (٣٧٥٠)، سنن ابن ماجه (٣٦٧٧)، وصححه ابن الملقن في: البدر المنير ٤٠٨/٩.
- (٣٢) أحكام أهل الذمة، ابن القيم ص ١٣٤٢-١٣٤٣.
- (٣٣) راجع: حقوق الإنسان في العهدين القديم والجديد مقارنة بالإعلان العالمي في ضوء الإسلام، خالد الشنير، ص ٤٥٩.
- (٣٤) صحيح البخاري (١٣٣١)، صحيح مسلم (١٩).
- (٣٥) المغني ٥١٥/٢.
- (٣٦) تفسير الطبري (جامع البيان) ٩٧/٢٤.
- (٣٧) المعجم الكبير (٩٧٧). قال الهيتمي في مجمع الزوائد ٨٦/٦: وإسناده حسن.
- (٣٨) تفسير ابن أبي حاتم ٥٣٩/٢ (٢٨٦٢).

- (٣٩) صحيح البخاري (٢٤٧٧)، والرواية الأخرى: (أفأعطيتها) هي في السنن الكبرى، للبيهقي ١٩١/٤.
- (٤٠) شرح صحيح مسلم، للنووي ٨٩/٧.
- (٤١) مسند أحمد ٢٣٨/٦. وصححه ابن كثير في تفسيره ١٤٧/٧.
- (٤٢) الأدب المفرد، البخاري (١٢٨)، وصححه الألباني في: صحيح الأدب المفرد.
- (٤٣) الأموال لابن زنجويه (١٦٥)، الأموال، لأبي عبيد القاسم بن سلام (١١٩).
- (٤٤) راجع هذا في: التسامح والعدوانية بين الإسلام والغرب، صالح الحصين، ص ١٣١-١٣٤.
- (٤٥) سنن أبي داود (٤٠٣١)، وصححه العراقي في: المغني عن حمل الأسفار في الأسفار (٨٥١).
- (٤٦) صحيح البخاري (٥٥٥٣)، صحيح مسلم (٢٥٩).
- (٤٧) دعوة التقريب بين الأديان، أحمد القاضي، ص ١٥٢٥.
- (٤٨) الدعوة إلى الإسلام، توماس آرنولد، ص ٦٩-٧٠ (ط. ١٩٧١م)، وفي بعض الطبعات: ص ٥١، وبعضها: ص ٩٨-٩٩.
- (٤٩) المصدر السابق، ص ٧٤.
- (٥٠) صحيح البخاري (٢٦١٥).
- (٥١) صحيح البخاري (٦٤٦٩).
- (٥٢) صحيح البخاري (٢٩٩٥). ولا يلزم من ذلك أنه لا يدخل الجنة مطلقاً، فقد تعاضدت الأدلة العقلية والنقلية على أن من مات مسلماً ولو كان من أهل الكبائر فهو محكوم بإسلامه غير مخلد في النار ومآله إلى الجنة، لو عُدب قبل ذلك. راجع: فتح الباري لابن حجر ٢٥٩/١٢.
- (٥٣) صحيح ابن حبان (٥٩٨٢)، وصححه الألباني أيضاً في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٤٤٠).
- (٥٤) صحيح البخاري (٦٧٦٩)، صحيح مسلم (١٦٦٩).
- (٥٥) الإسلام والآخر، صابر طعيمة، ص ٣٠٧.

- (٥٦) المستدرك على الصحيحين للحاكم (٨٠٢٤)، وصححه، ووافقه الذهبي.
- (٥٧) صحيح مسلم (١١٨).
- (٥٨) مسند أحمد بن حنبل ٤٢٣/٣، وقال الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، تحت تخريجه حديث رقم (٢١٠٨): وإسناده جيد.
- (٥٩) سنن أبي داود (٣٠٥٢)، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٤٤٥).
- (٦٠) تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك) ٥٠٣/٢ .
- (٦١) هذه الآثار المروية عن ابن عباس جاءت في كتاب: الأموال، لأبي عبيد (٤١٤-٤١٥)
- (٦٢) المصدر السابق (٤٢٣).
- (٦٣) راجع: النظام السياسي في الإسلام، جماعة من المؤلفين، ص ١٥٣ .
- (٦٤) يتبين تبيقه على الحاكم ضد المحكوم في تطبيق النبي ﷺ هذه العدالة حتى على نفسه. فقد جاء أعرابي إلى النبي ﷺ يتقاضاه ديناً كان عليه. فاشتد عليه الأعرابي حتى قال له: أخرج عليك إلا قضيتني! فانتهره أصحابه وقالوا: ويحك! تدري من تكلم؟ قال: إني أطلب حقي. فقال النبي ﷺ: (هلاً مع صاحب الحق كنتم!)، ف قضى النبي ﷺ للأعرابي حقه، وأطعمه أيضاً. فقال الأعرابي: أوفيت أوفى الله لك. فقال النبي ﷺ: (أولئك خيار الناس. إنه لا قدست أمة لا يأخذ الضعيف فيها حقه غير متعتع [من غير قلق وتعب]) سنن ابن ماجه (٢٤٢٦). وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٨١٨).
- وكان خليفة المسلمين الأول: أبو بكر الصديق يتمثل هذه العدالة بين الحاكم والمحكوم، فقد قال مرة للناس -وقد كان حاكماً- إذا كان بالغداة فأحضرُوا صدقات الإبل تقسم، ولا يدخل علينا أحد إلا بإذن، فقالت امرأة لزوجها: خذ هذا الخطوم [رباط للجمل] لعل الله يرزقنا جملاً. فأتى الرجل فوجد أبا بكر وعمر رضي الله عنهما قد دخلوا إلى الإبل، فدخل معهما، فالتفت أبو بكر رضي الله عنه فقال: ما أدخلك علينا؟ ثم أخذ منه الخطوم فضربه.
- فلما فرغ أبو بكر من قسم الإبل دعا بالرجل فأعطاه الخطوم، وقال: استقد [أي اضربني كما ضربتك]، فقال له عمر: والله لا يستقيد، لا تجعلها سنة. قال أبو بكر: فمن لي من

الله يوم القيامة؟ فقال عمر رضي الله عنه: أرضه [أي أعطه حتى يتنازل هو عن حقه] فأمر أبو بكر الصديق رضي الله عنه غلامه أن يأتيه براحلته [راحلة أبي بكر] ورحلها وقطيفة وخمسة دنانير فأرضاه بها. (السنن الكبرى، للبيهقي ٤٩/٨).

وفي شريعة الإسلام؛ لو تنازل المظلوم عن حقه بسبب من الأسباب، فإن القصاص يسقط في هذه الحالة، وهو ما صنعه أبو بكر، حينما أرضى هذه الرجل. ونلاحظ هنا أنه أعطاه راحلته، ولم يُعطه من بيت مال المسلمين.

ونقل الشافعي عن الخليفة عمر أنه قال: (رأيت رسول ﷺ يعطي القودَ [القصاص بالمثل] من نفسه، وأبا بكر يعطي القود من نفسه، وأنا أعطى القود من نفسي) الأم، للإمام الشافعي ٥٠/٦.

(٦٥) شمس العرب تسطع على الغرب، زيجريد هونكه، ص ٣٦٤.

(٦٦) أهل الذمة في الإسلام، تروتون، ص ١٦٣-١٦٤.

(٦٧) العلاقات الدولية، صالح الحصين، ص ٣٥.

(٦٨) التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور ٦٢/٢٥.

(٦٩) سبق تخريجه، وهو صحيح.

(٧٠) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (تفسير القرطبي) ١١٠/٦.

(٧١) السنن الكبرى، للبيهقي ٩/٩.

(٧٢) المصدر السابق ٣٦٧/٦، وصححه الألباني في: صحيح السيرة، ص ٣٥.

(٧٣) صحيح البخاري (١٣٢٨).

(٧٤) فتوح مصر وأخبارها، لابن عبد الحكم، ص ٢٩٠.

(٧٥) راجع بحثا بعنوان: سماحة الأحكام الشرعية في علاقة المسلمين بغيرهم، محمد تقي

العثماني، بحث قدم في مؤتمر مكة المكرمة الثالث المنعقد في مكة المكرمة بعنوان:

(العلاقات الدولية بين الإسلام والحضارة المعاصرة) بتاريخ: ١١/٢٩/١٤٢٣هـ —

الموافق ٢٠٠٣/٢/١م، والذي نظمته رابطة العالم الإسلامي.

<http://www.themwl.org/Bodies/Researches/default.aspx?d=1&rid=63&l=AR>

(٧٦) راجع: التلمود كتاب اليهود المقدس، أحمد إيبش، ص ٣٩٥.

(٧٧) راجع: الحروب الصليبية، وليم الصوري، ١٢٦/٢-١٢٨، قصة الحضارة، ول ديورانت ١٥/١٤-٢٥، تاريخ الكنيسة المفصل، جماعة من العلماء ١٢٢/٣، نقله عن الفرنسية: صبحي حموي اليسوعي.

(٧٨) راجع: الله ليس كذلك، زيغريد هونكه، ص٤٤-٤٥، الإسلام والعرب، روم لاندو، ص١٨٠.

(٧٩) البداية والنهاية، ابن كثير ٩/٢١٣.

(٨٠) الأموال، لأبي عبيد (٤٦٧).

(٨١) السير الكبير، محمد بن الحسن الشيباني (ضمن كتاب: شرح السير الكبير، للسرخسي ١/٢٠٩).

(٨٢) البروتستانت (الإنجيليون): البروتستانتية اسم عام يطلق على مئات الطوائف والفرق النصرانية. والبروتستانتية وليدة حركة الإصلاح الديني المعروفة في العصور الوسطى في أوروبا. وكلمة البروتستانت كلمة لاتينية معناها المحتج. ثم أطلق الاسم بعد ذلك على جميع الطوائف والفرق النصرانية التي اختلفت مع الكنيسة الرومانية الكاثوليكية وخرجت عليها. ويفضل البروتستانت أن يُسموا — الإنجيليين.

وهناك عدد من الكنائس الإنجيلية في العالم: اللوثرية، المنهجية أو الميثودست، المشيخية، الإنجيليكانية. والمذهب البروتستانتى هو المذهب المنتشر في: الدنمارك وبريطانيا والنرويج والسويد والولايات المتحدة راجع: الفرق والمذاهب المسيحية، سعد رستم، ص١٢١، الإنجيليون اسماء ومفاهيم، للقس: عبد المسيح استفانوس، ص١٨، الموسوعة العربية العالمية، مادة: البروتستانتية.

(٨٣) مقالة: الأمن الفكري الحجر الفكري قراءة في النظام الثقافي، محمد الحضيف:

www.alhodaif.com/main

(٨٤) انظر كتاب: محمد، ل: كارين أرمسترونج ص ١٨، نقلا عن: المسلمون في الفكر المسيحي، طارق منصور ص ٢٤.

(٨٥) مسند أحمد بن حنبل ٤١١/٥، قال الهيثمي في: مجمع الزوائد ٢٦٦/٣ (رجال رجال الصحيح).

(٨٦) صحيح مسلم (٢٥٨٦).

(٨٧) قال ابن كثير معلقا على هذه الآيات: (يقول تبارك وتعالى، منكرًا على اليهود الذين كانوا في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة، وما كانوا يعانونه من القتل مع الأوس والخزرج، وذلك أن الأوس والخزرج، وهم الأنصار، كانوا في الجاهلية عبّاد أصنام، وكانت بينهم حروب كثيرة، وكانت يهود المدينة ثلاث قبائل: بنو قينقاع. وبنو النضير حلفاء الخزرج. وبنو قريظة حلفاء الأوس. فكانت الحرب إذا نشبت بينهم قاتل كل فريق مع حلفائه، فيقتل اليهودي أعداءه، وقد يقتل اليهودي الآخر من الفريق الآخر، وذلك حرام عليهم في دينه ونص كتابه، ويخرجونهم من بيوتهم وينهبون ما فيها من الأثاث والأمتعة والأموال، ثم إذا وضعت الحرب أوزارها استفكوا الأسارى من الفريق المغلوب، عملا بحكم التوراة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَقْتُمُونِ بَعْضَ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بَعْضُ﴾ تفسير ابن كثير ٣١٨/١.

(٨٨) راجع في عرض مثل هذه التصورات: أهمية الجهاد في الدعوة إلى الله، علي العلواني، ص ٣٥٠.

(٨٩) كما أشرت قريبا؛ هذه النقطة محل بحث في دراسة أخرى -إن شاء الله- ستكون حول: السلام في اليهودية، والسلام في النصرانية.

(٩٠) راجع: الولاء والبراء بين الغلو والجفاء، حاتم الشريف، ص ٤٩.

(٩١) الإيمان، ابن تيمية (ضمن مجموع الفتاوى ١٧/٧).

(٩٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر ٢٣٣/٥.

(٩٣) زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي ٢٣٨/٨.

(٩٤) راجع: التعامل مع غير المسلمين، عبد الله الطريقي، ص ١٥-١٦، و ٦١-٦٦.

• ثبت المصادر والمراجع:

- ١- القرآن الكريم
 - ٢- أحكام أهل الذمة، لابن القيم، تحقيق: يوسف أحمد البكري - شاعر توفيق العاروري، رمادى للنشر - دار ابن حزم، الدمام - بيروت، ط١، ١٤١٨ - ١٩٩٧.
 - ٣- الإسلام والآخر، صابر طعيمة، مكتبة الرشد، الرياض، ط١، ١٤٢٨ - ٢٠٠٧ م.
 - ٤- الأم، محمد بن إدريس الشافعي (الإمام) دار المعرفة، بيروت، ط٢، ١٣٩٣.
 - ٥- الأمن الفكري الحجر الفكري قراءة في النظام الثقافي، محمد الحضيف، مقالة على موقعه الخاص:
- www.alhodaif.com/main
- ٦- الأموال، أبو عبيد القاسم بن سلام، تحقيق: خليل محمد هراس، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.
 - ٧- الأموال، حميد بن زنجويه، تحقيق: شاعر فياض، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض.
 - ٨- الإنجيليون أسماء ومفاهيم، للقس: عبد المسيح استفانوس، مجلس الإعلام والنشر.
 - ٩- أهل الذمة في الإسلام، د. أ.س. ترتون، ترجمة وتعليق: حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٣، ١٩٩٤ م.

- ١٠- أهمية الجهاد في الدعوة إلى الله، علي العلياني، دار طيبة، الرياض، ط٢، ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م.
- ١١- الإيمان (ضمن مجموع الفتاوى)، ابن تيمية، جمع ابن قاسم، مجمع الملك فهد، المدينة، ١٤١٦هـ.
- ١٢- البداية والنهاية، ابن كثير، مكتبة المعارف، بيروت، ط١، ١٩٦٦م.
- ١٣- البدر المنير في تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في الشرح الكبير، سراج الدين ابن الملتن، تحقيق: مصطفى أبو الغيط وآخرون، دار الهجرة للنشر والتوزيع، الرياض، ط١، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م.
- ١٤- تاريخ الطبري، (تاريخ الأمم والملوك)، ابن جرير الطبري، الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٧هـ.
- ١٥- تاريخ الكنيسة المفصل، جماعة من العلماء، ترجمة: صبحي حموي اليسوعي، دار المشرق، بيروت، ط١، ٢٠٠٢م.
- ١٦- التسامح والعدوانية بين الإسلام والغرب، صالح الحصين، كرسي الأمير سلطان للدراسات الإسلامية المعاصرة في جامعة الملك سعود، الرياض، ١٤٢٩هـ.
- ١٧- التعامل مع غير المسلمين، عبد الله الطريقي، دار الفضيلة، الرياض، ط١، ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م.
- ١٨- تفسير ابن أبي حاتم (تفسير القرآن العظيم)، ابن أبي حاتم، تحقيق: أسعد الطيب، نشر/ نزار الباز، مكة، ط١، ١٤١٧هـ.
- ١٩- تفسير ابن كثير (تفسير القرآن العظيم)، تحقيق: سامي السلامية، دار طيبة، الرياض، ط٢، ١٤٢٠، ١٩٩٩م.

- ٢٠- تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، دار سحنون، تونس، ١٩٩٧م.
- ٢١- تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن)، تحقيق: أحمد شاکر، دار المعارف، مصر، (ومثلها: ط. مؤسسة الرسالة الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م).
- ٢٢- التلمود كتاب اليهود المقدس، أحمد إيبش، دار قتيبة، دمشق، ط١، ١٤٢٧هـ.
- ٢٣- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، إحياء التراث، بيروت، ١٤٠٥هـ.
- ٢٤- الحروب الصليبية، وليم الصوري، ترجمة: حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢م.
- ٢٥- حضارة العرب، غوستاف لوبون، ترجمة: عادل زعير، مطبعة عيسى البابي الحلبي.
- ٢٦- حقوق الإنسان في العهدين القديم والجديد مقارنة بالإعلان العالمي لحقوق الإنسان، خالد محمد الشنير، رسالة دكتوراه، قسم الثقافة الإسلامية، كلية التربية، جامعة الملك سعود، ١٤٢٩هـ.
- ٢٧- دعوة التقريب بين الأديان، أحمد القاضي، دار ابن الجوزي، السعودية، ط١، ١٤٢٢هـ.
- ٢٨- الدعوة إلى الإسلام، سير توماس أرنولد، ترجمة: حسن إبراهيم حسن، وآخرون، مكتبة النهضة المصرية، مصر ١٩٧٠م.

٢٩- زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٤، ١٤٠٧هـ.

٣٠- سلام للبشر المسيحية والإسلام ينظران إلى السلام، جماعة من المؤلفين، من إعداد: أندراوس بشته، عادل تيودور خوري، المكتبة البولسية، لبنان، ١٩٩٧م.

٣١- سلسلة الأحاديث الصحيحة، الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، ١٤١٥هـ

٣٢- سماحة الأحكام الشرعية في علاقة المسلمين بغيرهم، محمد نقى العثماني، بحث قدم في مؤتمر مكة المكرمة الثالث المنعقد في مكة المكرمة بعنوان (العلاقات الدولية بين الإسلام والحضارة المعاصرة) بتاريخ: ٢٩/١١/١٤٢٣هـ الموافق ٢٠٠٣/٢/١م، والذي نظّمته رابطة العالم الإسلامي

<http://www.themwl.org/Bodies/Researches/default.aspx?d=1&rid=63&I=AR>

٣٣- السنن الكبرى، البيهقي، المعرفة، بيروت.

٣٤- السنن، ابن ماجه، محمد فؤاد عبد الباقي، الحديث، ١٤١٤هـ.

٣٥- السنن، أبو داود، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، العصرية، بيروت، ١٤١٦هـ.

٣٦- السنن، الترمذي، تحقيق: أحمد شاكر وعبد الباقي وعطوة، الناشر: البابي الحلبي، مصر، ط١/١٣٥٦هـ

٣٧- السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، مهدي رزق الله، مركز الملك فيصل للبحوث، الرياض، ط١، ١٤١٢-١٩٩٢م.

- ٣٨- شرح صحيح مسلم، النووي، الريان للتراث، مصر، ط١، ١٤٠٧هـ
- ٣٩- شرح كتاب السير الكبير، محمد بن أحمد السرخسي، تحقيق: صلاح الدين المنجد، مكتبة ابن تيمية، القاهرة.
- ٤٠- شمس العرب تسطع على الغرب، زيجريد هونكة، ترجمة: فاروق بيضون، دار صادر، دار الآفاق الجديد، بيروت، ط٨.
- ٤١- صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، ابن حبان، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤١٨هـ.
- ٤٢- صحيح البخاري، الإمام البخاري، تحقيق: مصطفى البغا، ابن كثير، دمشق، ط٢، ١٤٠٧هـ.
- ٤٣- صحيح الترغيب والترهيب للمنزري، الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، ط١، ١٤٢١هـ.
- ٤٤- صحيح السيرة النبوية، ناصر الدين الألباني، المكتبة الإسلامية، عمان، ط١.
- ٤٥- صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، المكتبة الإسلامية، استانبول.
- ٤٦- العقيدة والشريعة في الإسلام، إجناس جول تسيهر، ترجمة: محمد يوسف موسى، وآخرون، دار الكتب الحديثة، مصر، ط٢.
- ٤٧- العلاقات الدولية بين منهج الإسلام ومنهج الحضارة المعاصر، صالح الحصين، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ١٤٢٨-٢٠٠٧م.
- ٤٨- غير المسلمين في المجتمع المسلم، منقذ السقار (كتاب الكتروني على صفحة المؤلف في موقع صيد الفوائد:

- ٤٩- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر، تحقيق: ابن باز وعبد الباقي والخطيب، دار المعرفة، بيروت.
- ٥٠- فتوح مصر وأخبارها، عبد الرحمن بن عبد الله عبد الحكم، تحقيق: محمّد الحبيزي، ط١، دار الفكر، بيروت، ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م.
- ٥١- الفرق والمذاهب المسيحية، منذ ظهور الإسلام حتى اليوم، سعد رستم، الأوّل، سورية، ط٢، ٢٠٠٥.
- ٥٢- قصة الحضارة، ول ديورانت، ترجمة: زكي نجيب محمود، دار الجيل، المنظمة العربية للتربية، بيروت-تونس.
- ٥٣- الكامل في التاريخ، ابن الأثير، تحقيق: عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤١٥هـ.
- ٥٤- الله ليس كذلك، زيجريد هونكه، دار الشروق، القاهرة، ط٢، ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م.
- ٥٥- المجتمع الإسلامي والعلاقات الدولية، محمد عفيفي، مؤسسة الخانجي، القاهرة، بدون ط، ولا: ت.
- ٥٦- مجمع الزوائد، أبو بكر الهيثمي، الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٤٠٢هـ.
- ٥٧- المستدرك على الصحيحين، الحاكم، تحقيق: مصطفى عبد القادر، الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١١هـ.
- ٥٨- المسلمون في الفكر المسيحي: العصر الوسيط، طارق منصور، مصر العربية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ٢٠٠٨م.

- ٥٩- المسند، الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤١٦هـ.
- ٦٠- المسند، الإمام أحمد، المطبعة الميمنية، ونشر دار صادر.
- ٦١- المعجم الكبير، الطبراني، تحقيق: حمدي السلفي، إحياء التراث، ط٢.
- ٦٢- المغني عن حمل الأسفار، أبو الفضل العراقي، تحقيق: أشرف عبد المقصود، مكتبة طبرية، الرياض، ط١، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م.
- ٦٣- المغني، موفق الدين ابن قدامة، الفكر، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ.
- ٦٤- الموسوعة العربية العالمية، إعداد: جماعة من الباحثين، مؤسسة أعمال الموسوعة العالمية، الرياض، ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م.
- ٦٥- موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، عبد الوهاب المسيري، دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٩٩٩م.
- ٦٦- النظام السياسي في الإسلام، إعداد أعضاء هيئة التدريس في قسم الدراسات الإسلامية، بجامعة الملك سعود، مدار الوطن، ط٢، ١٤٢٧هـ.
- ٦٧- الولاء والبراء بين الغلو والجفاء في ضوء الكتاب والسنة، حاتم بن الشريف، رابطة العالم الإسلامي ١٤٢٦هـ، العدد (٢٠٦) من سلسلة دعوة الحق، على موقع رابطة العالم الإسلامي

<http://www.themwl.org/Home.aspx?l=ar>

